مِنْ تُراثنا الخالد

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الاولى
١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

مِنْ تُرَاثِنَا الخَالِد



بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أَنَبْنا

وإليك المصير



التراث في اللغة

كلمة التراث جاءت في كتاب الله عز وجل في موضع واحد: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾[1].

والمعنى كما في تفسير الإمام الطبري رحمه الله تعالى:

وتأكلون الميراث أكلاً شديداً، لا تسألون: أمن حلال هو أم من حرام..

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولك يا ربّ تراثي أي ميراثي»[2]. وفي حديث آخر: «كان عيشهم كفافاً، فعجلت منيته، وقلّت بواكيه، وقلّ تراثه» أي ميراثه[3].

والتراث: ما يتركه الرجل لورثته، والتاء أصلها واو، يقول ابن الأعرابي: إن الترث والإرث والوِرْث ألفاظ مترادفة.. فهي إرث في المال وفي الحسب والشرف، وفيه الميراث الثقافي والأدبي، لأنه من مقومات الشرف والحسب التي يتوارثها الأبناء عن الآباء.. وقيل: الوِرْث والميراث في المال، والإرث في

---

(١) سورة الفجر آية ١٩.

(٢) ص ٨٧ كتاب الدعوات من سنن الامام الترمزي.

(٣) ص ٣٥ كتاب الزهد من سنن الترمزي، (ص ٤ كتاب الزهد من سنن ابن ماجة، ص ٥/٢٥ مسند الإمام أحد).

الحسب، وإن كان الزمخشري يرى أنّ الإرث تستعمل في الشرف والحسب مجازاً[٤].

فالتراث لغة: الميراث، والميراث يشمل الميراث المالي وميراث الشرف والحسب، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[٥]، فالميراث هنا هو ميراث النبوة والوحي والعلم والفضيلة إذ أن المال لا وزن له عند الأنبياء، ولا يلتفتون إليه، فليس مراداً في الآية الكريمة بَل المراد الميراث المعنوي لا المادي.. وفي القرآن الكريم: ﴿ثم أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِي اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنا﴾[٦]، فالميراث هنا ميراث في الوحي والكتب السماوية المنزلة[٧].

ومن مأثورات أبي هريرة رضي الله عنه: أنتم هنا وميراث محمد صلى الله عليه وسلم يوزَّع في المسجد »، وميراثه هو حلقات الذكر وتلاوة القرآن الكريم، وقد ذكر ابو هريرة لصحابة رسول الله أن هذا هو ميراث محمد عليه الصلاة والسلام[٨].

فالتراث هو الميراث، ميراث الشرف والحسب والدين ووحي السماء. وأما ميراث المال فليس بالمقصود في هذه الآيات والأحاديث الشريفة، وإن كان جائزاً لغة.

فالمواريث الثقافية والأدبية هي ميراث، وهي تراث، وهي كالمواريث المادية مكسب وربح للإنسان.

والتراث هو حضارة الأمة ومدنيتها، فليس كالثقافة والفكر والأدب شيئاً تعتز به الأمة، ويرثه الأبناء عن الآباء، وتعتبره مقوّماً من مقومات حضارتها.

---

(٤) ص ٤٩٥ أساس البلاغة.

(٥) سورة مريم آية ٦.

(٦) سورة فاطر آية ٣٢.

(٧) ١٣٦/٢٢ تفسير الطبري.

(٨) ١٢٣/١ مجمع الزوائد للهيثمي.

إن التراث هو أجلُّ مكسب، وأعظم موروث، وأكبر ربح، يحصل عليه الخلف عن السلف... ونحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمة العرب، قد ورثنا عن آبائنا أعظم ثقافة، وأجلَّ تراث، وأكبر مجد، وأنفع ميراث، ورثنا الدين وورثنا اللغة، وورثنا التراث من علم وثقافة ومعرفة وأدب وفن وكنوز حضارة، ومناجم مدنية دونها مناجم الذهب والفضة..

ورثنا عن آبائنا وأجدادنا رسالة التوحيد والإيمان، وشريعة السماء والاسلام وخاتم الأديان والكتب السماوية المنزلة، وورثنا وحي السماء من كتاب وسنّة، وما أجلَّه ميراثاً، وما أكرمه وأخلده وأعظمه تراثاً.

ولقد أضفى الغرب على معنى كلمة التراث معنى إلحادياً مأخوذاً من نظريتهم العامة إلى الدين واعتبارهم له من مخلّفات العصور القديمة الرجعية في نظرهم، فتعاملوا مع التراث تعاملهم مع أي شيء، قد يقبلونه وقد يرفضونه، ومن ثم جاء الفكر العلماني الغربي بروحه الالحادية المعادية للدين والتي تعتبر رسالة السماء تراثاً، للعقل أن يقبله أو أن يرفضه. وتجاوز هذا الفكر عصر المسيحية وتراثها الى العصور السابقة عليه، وإلى تراث اليونان والرومان، واستوعب أدب عصر النهضة الأوروبية، أدب القرن السابع عشر وهو الأدب الكلاسيكي، الآداب اليونانية واللاتينية، فاستمد منها مادته، وجاءت مدرسة الرومانتيكيين فأخذت من أدب العصور الوسطى واستمدت منه وإن كانت روح المجافاة والمعاداة للدين واضحة عندها وغالبة عليها كذلك، سواء في ذلك فولتير، أو ديدرو، أو غيرهما.. ولكن روسو كان يحترم الدين ويؤمن بالله مع ثورته على الكنيسة وفلسفتها التربوية.. وجاءت المدرسة الجمالية في منتصف القرن التاسع عشر تعلن في وضوح ترك القيم الروحية والخلقية التي يحترمها المجتمع، وفي القرن العشرين سيطرت العبثية والوجودية والماركسية، وفقد المجتمع الغربي اليقين الديني، وأعلن اندريه مالرو في مؤلفه «إغراء الغرب» عام ١٩٢٥ أنه في اللب من الإنسان الأوروبي ثمة عبثية جوهرية تسيطر على اللحظات الكبرى في حياته وفي كتاب: «اللامنتمى»، وفي «سقوط الحضارة» إعلان عن إفلاس الحضارة الغربية إفلاسا تاما ببعدها

الغريب عن السماء.

التراث الديني عندنا نحن المسلمين هو تراث مقدس نستضيء بفكره وروحه ونتخذه لنا مصباحاً يضيء قلوبنا وحياتنا بنور اليقين.. أمَّا التراث الأدبي فهو تراث العقل الإنساني، نأخذ منه حيناً، ونرفضه حيناً آخر.

إن تراث العربية، وهو تراث الاسلام ليجري في دمائنا، وفي أعماق قلوبنا ومشاعرنا مجرى الدم، الذي يهبنا الحياة والايمان واليقين.

وقد عبر الدكتور أكرم العمرى في كتابه «التراث والمعاصرة» عن كل القيم النبيلة التي يمثلها تراثنا العربي الذي يجمع جوهر تراث الإسلام وروحه وخلاصته.. وهذا الكتاب العظيم عبَّر عن كثير من المضامين الفكرية التي عبّر عنها بصدق وإيمان.

التراث العربي

- ١ -

تراث الأمة هو حضارتها وتاريخها وشخصيتها المتميزة بين الأمم، وهو المنجم الحضاري الذي تستمد منه الأمة أصول بقائها وتطورها وازدهارها الفكري، بل والمادي أيضاً...

ونحن نعلم أن تراثنا قامت عليه حضارة ازدهرت في العالم خلال ألف عام أو يزيد، وعلى أصوله قامت الحضارة الأوروبية الحديثة.

وتراثنا العلمي - مع عظمته - هو نهج ثقافة العلماء المتخصصين، وشباب الباحثين والدارسين.

أما التراث الأدبي فهو غذاء كل الشعب، وكل الشباب، وكل المتعلمين، لأنه هو الذي يغذي وجدان الشعب ومشاعره وعواطفه بكل القيم الرفيعة الحية المؤثرة في أخلاق الجماهير وسلوكهم وأذواقهم وحياتهم.

ونحن الشعب العربي المسلم، والشعب المصري العريق في حضارته وإسلامه وعروبته، نملك تراثاً أدبياً غالياً كبيراً.. غالياً لأنه تراث لغة القرآن الكريم، وكبيراً لأنه تراث أجيال طويلة، وأعلام خالدين، واسهام شعوب عديدة دخلت في الاسلام، ونطقت باللغة العربية، وأبدعت فكرها الأدبي في أسفار باقية على مر الزمان.

تراثنا الأدبي كثير جداً، ومتفرق في شتى خزائن الكتب في مختلف أنحاء

العالم، ونحن في مصر ـ بحمد الله ـ نملك منه ثروة طائلة لا تزال مخطوطة في دور الكتب في القاهرة ومختلف مدننا الجميلة.

وهذا التراث المكتوب باللغة الفصحى عامل مؤثر في الارتقاء بلغتنا الأدبية، وفي الحفاظ على أصالتها، وفي رفع مستوى شبابنا في اللغة ومفرداتها وأساليبها، وفي تذوقها أيضاً، وفي أستمرار إفادتنا من النتاج الفكري المكتوب بالعربية الفصحى في حياتنا المعاصرة، وهو الصلة القوية بين ماضينا وحاضرنا.

وتفريطنا في هذا التراث الأدبي القديم أو إهماله ـ معاذ الله ـ يقطع صلتنا بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ويمكن للهجات العامية من النمو على حساب الفصحى، مما ينمي التمزق الثقافي في صفوف الأمة، لأن للغة مكانتها الخطيرة المتميزة في الوحدة الثقافية، ومشكلة الثقافة مرتبطة بالمشكلة الحضارية، لا تنفك عنها، ولا ريب أن الشعوب المتقدمة تكنولوجياً وحضارياً هي التي حققت النسب العالية من الثقافة، ومن الافادة من التراث.

ومن هذا نستطيع أن نقول: إن عنايتنا بالتراث العربي الأدبي يجب أن تتوجه إلى:

١ ـ التراث الأدبي المكتوب باللغة الفصحى بصفة عامة.

٢ ـ التراث الأدبي المصري بصفة خاصة، أي الذي كتبه أدباء مصريون طيلة ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً من الزمان، أي من بدايات حكم الولاة العباسيين لمصر عام ١٣٢ هـ/٧٥٠ م أي منذ بدايات ظهور أدب مصري عربي مكتوب باللغة العربية حتى عام ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م وهو عام الثورة العرابية في مصر، وعلى وجه الخصوص يجب أن نعنى بكل ما يتصل من هذا التراث بتاريخ مصر وحضارتها وأعلامها ورواد الثقافة والفكر فيها.

(أ) ماذا نصنع بهذا التراث الأدبي من المخطوطات التي بين أيدينا، أو التي قد نستطيع تصويرها من أي مكان؟

لا ريب أن نشر هذه المخطوطات بصورة عملية هو هدف ضروري لبنائنا الفكري والحضاري والتاريخي والعربي والاسلامي.

وهذا الهدف لكي نستطيع الوصول اليه يجب أن نمشي في طريق معبد يؤدي بنا إلى أهدافنا المأمولة بأذن الله...

(ب) ومن أجل ذلك لا بد من القيام بدراسات تفصيلية للمخطوطات التراثية الأدبية، وجدولتها حسب الأجناس الأدبية أولاً، ووفق الأهمية ثانياً وباعتبار قيمتها الأدبية أخيراً، وذلك من أجل اختيار المخطوطات التي ترشح للتحقيق والنشر.

فهذه الدراسات الأولية ينبغي أن تتقدم تحقيق المخطوطات ونشرها، لأنها الطريقة الوحيدة لترشيد عمل المحققين، ولابعاد حركة التحقيق عن السقوط في المتاهات، والتخبط بين عشرات الألوف من المخطوطات وإخراج بعضها دون إنتقاء علمي مبني على دراسات عميقة متخصصة.

والاولى استبعاد ما حقق من كتب التراث الأدبي، حتى لايعاد تحقيقه مرة أخرى، وحتى تتوجه العناية إلى المخطوطات المكدسة التي لم يولها أحد من قبل أية عناية.

(جـ) إن المطلوب من جيلنا ليس هو فحسب مجرد العناية بالتراث الأدبي المتمثل في عشرات الالاف من المخطوطات، بجمعها وحفظها ونشر عدد محدود منها، بل هو السعي الحثيث للتعريف الكامل بالمخطوطات، بدراسات تكتب عنها، تعريفاً بها وبمدى أهميتها وقيمتها، بوساطة العلماء المتخصصين أو الباحثين المتميزين، وأساتذة الجامعات، في كليات الآداب واللغة والتربية وكلية دار العلوم، على أن تتم مثل هذه الدراسات بأقصى سرعة ممكنة، وذلك

لتكوين رؤية واضحة للتراث الأدبي المخطوط، تمكننا من تحديد الأولويات وذلك لكي نستطيع البدء في ترشيد حركة تحقيق المخطوطات...

ومن المؤكد أن اعداد قوائم بالمخطوطات ذوات القيمة الأدبية العالية، لاختيارها للتحقيق شيء ضروري، وأمر لا غنى لنا عنه، إذ أن بعض المخطوطات يمكن أن يكون لدينا استغناء عنه، وقد يكون من الكتب المطبوعة ما يسد مسده، وبعضها ألفه مغمورون، ليس لهم مستوى أدبي أو علمي متميز، وبعضها فيه من النقص أو التحريف والتصحيف أو التشويه والتأكل ما قد يتعذر معه إخراجه محققا مصححاً، والإفادة منه في موضوعه، وبعضها نشر وحقق من قبل، في أي مستوى من التحقيق، فلا داعي للتفكير فيه مرة أخرى، إن معرفة ذلك كله أمر ضروري، قبل البدء في التحقيق، إذ أن أحياء المخطوطات ليس هدفاً لذاته، بل هو وسيلة لخدمة المعرفة، فإذا كانت لا تضيف جديداً إلى معارفنا، فالأولى إهمال مثل هـذه المخطـوطـات، حتى لا نبذل جهداً يمكن إنفاقه في إحياء المخطوطات المهمة، ويثمر عملنا فيه.

وعندما تتوفر لنا دراسات قيمة تفصيلية عن مخطوطات التراث الأدبي المبثوثة في دور الكتب وخزائنها في مصر وخارج مصر، يمكن بعد ذلك أن تبدأ عملية الاختيار للأهم منها، وتبدأ بعدها الخطوة المهمة، وهي عملية التحقيق، الذي هو مسئولية العلماء والهيئات الثقافية والجامعات والمجامع اللغوية والأدبية.

وهناك من بين مخطوطات التراث الأدبي موسوعات أدبية كبيرة، والعناية بهذه الموسوعات، من حيث نشرها محققة، ضرورة أدبية وحضارية إذ أن المادة الأدبية في هذه الموسوعات كبيرة، بالإضافة إلى ما تمد به حضارتنا من معارف وثقافات وفنون وآداب الأمم الحضارية القديمة.

وكذلك لا ريب أن لدينا رسائل جامعية كثيرة، موضوعها تحقيق نصوص

أدبية وكتب من التراث الأدبي...

ومن الواجب تصوير هذه الرسائل من مختلف جامعاتنا، والعمل على نشرها لأهميتها ولأنها تحقيقات تراثية موجودة فعلاً تحت أيدينا.

- ٣ -

ومن الضروري أن نفكر جدياً في حاجتنا الملحة إلى إنشاء معهد أو مركز قومي للتراث أو كلية جديدة تقوم من أجله ولخدمته، وتشرف على هذه المؤسسة الجديدة جامعة من جامعاتنا، أو وزارة من وزارات الدولة، أو المجالس القومية المتخصصة، ويلتحق بها خريجو كليات اللغة العربية والآداب والتربية، وكلية دار العلوم، وكلية اللغات والترجمة، وكلية الألسن ويمنحون مكافآت شهرية، تشجيعاً لهم ولنحفزهم على الجد والمثابرة والبحث.

ويمكن لهذا المعهد أو المركز أو المؤسسة أن لا تقتصر على دراسة التراث الأدبي وتحقيقه ونشره فحسب، وذلك بأن ينشأ فيه كذلك قسم للتراث العلمي العربي بجانب قسم التراث الأدبي وتكون الدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات:

ففي السنة الأولى يدرس الطالب التراث الأدبي تاريخياً حسب عصوره كما يدرس مناهج التحقيق وفي العام التالي يدرس الطالب الجانب العصري من تراثنا الأدبي، ويعمل مع أساتذته في فهرسة هذا التراث الأدبي فهرسة دقيقة، ويتاح له السفر من أجل تصوير بعض المخطوطات من دور الكتب في كل الجهات، تتمة للجهود التي بذلها من قبل معهد المخطوطات العربية، الذي كان يتبع الجامعة العربية.

وفي العام الثالث يعمل الطالب في فهرسة جانب من التراث الأدبي العربي العام، ويعمل كذلك بمكافأة مجزية في دور الكتب المصرية في القاهرة أو

عواصم المحافظات لمدة شهر أو شهرين وبعد ذلك يتاح له أن يكتب بحثاً للماجستير.

- ٤ -

ومن الضروري تبادل صور المخطوطات بين مؤسساتنا الثقافية لتوفير العبء والجهد، ولتيسير إطلاع الباحثين والعلماء عليها، دون الحاجة إلى السفر إلى مكان وجودها.

والاسترشاد بجهود معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية أمر حتمي، إذ أنه عمل مقدوراً ومشكوراً في ميدان تصوير بعض المخطوطات، ومن ثم يجب أن نحتذيه ونسير على منواله في هذا المضمار. ومكتبة المعهد النفيسة التي تحتوي على الكثير من المصورات لمخطوطات تراثية يجب أن تنتقل إلى المركز المقترح إنشاؤه، ليستفيد منها طلابه.

ومن الواجب أن يكون لهذا المركز الجديد مجلة تراثية قوية محترمة خاصة بكل الدراسات التراثية، على نمط مجلة الفكر الكويتية ومجلة المورد العراقية...

وإن قلة أعداد المحققين والعاملين في حقل كتب التراث اليوم، سوف تتغير بإنشاء المركز القومي للتراث، وتخريج طبقات وأجيال عديدة منه، عاماً بعد عام.

ولا خير في أن نطلق على هذا المركز اسم دار الحكمة إحياء لدار الحكمة التي أنشأها في القاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمي، مضاهاة لدار الحكمة التي أنشأها الرشيد ورعاها المأمون في بغداد، ولدار الحكمة التي أنشأها الأغالبة في القيروان عاصمة الدولة في عهدهم.

وفي الإمكان تدبير المال اللازم للانفاق على مثل هذا المركز عن طريق التبرعات والإعانات ونسبة مئوية تحصل من المكتبات العاملة في حقل التراث.

ولا يغنى عن مثل هذا المركز وجود دار الكتب الوطنية، أو إنشاء قسم فيها للتراث، بحال من الأحوال، إذ أن المركز مهمته الكبرى - بجانب عمله في تحقيق التراث - تخريج أجيال من المحققين والباحثين في التراث والعاملين في

حقله، والاكتفاء بوجود دار الكتب سيؤخر العمل في إحياء التراث أجيالاً، وبحسبنا أن كتاباً مثل الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني استغرق تحقيقه ونشره عن طريق القسم الأدبي في دار الكتب المصرية نحو الأربعين عاماً، وبعض الكتب التراثية التي حققها القسم الأدبي لم يتم نشرها، وبعضها لم يتم تحقيقه كله حتى اليوم ومناهج التحقيق كما هو معروف ترجع الى:

(أ) المنهج العربي القديم، الذي يعنى بشرح نصوص الكتاب، وتحقيق رواياته وشواهده.

(ب) أو المنهج الغربي الاستشراقي، الذي يعنى عناية خاصة بتوثيق نص الكتاب التراثي، والاشارة إلى مخطوطاته، والمقابلة بين نسخه، والفهرسة الكاملة له.

على أنه يمكن الجمع بين المنهجين في منهج واحد، يعنى بالشرح والتوضيح والتفسير، كما يعنى بالتوثيق والمقابلة والفهرسة جميعاً.

- ٥ -

وفي نشر التراث يصح لنا أن نستفيد فيه من تجربة سلسلة الألف كتاب التي كانت تصدر عن إدارة الثقافة بوزارة المعارف كما كانت تسمى، أو وزارة التربية والتعليم كما أصبحت اليوم... إذ أن الطريقة التي سارت عليها السلسلة هي تكليف المكتبات الخاصة بالقيام بالنشر نظير دعم لها.

ومعاونة دار الكتب المصرية أمر ضروري في عمليات النشر والتوزيع جزء متمم للعملية كلها والعناية بالمكتبات المنتقلة التي تتجول في القرى والريف والمدن الصغيرة، والأحياء النائية، وكذلك تعميم البطاقات المعتمدة من كبرى المكتبات لشراء الكتب بخصم معقول وعلى أقساط شهرية مناسبة، وكذلك الإكثار من معارض الكتب في الجامعات، وتقرير خصم كبير من أثمان الكتب المباعة للشباب والأطفال والمعوقين، كل ذلك أمر ضروري لا مندوحة عنه.

وصرف بعض المصادر الأدبية القديمة وبعض المراجع الأدبية الحديثة

لطلاب اللغة والآداب ودار العلوم، على سبيل المكافأة، كالتقليد القديم الذي كان معمولاً به من قبل، أمر لا غنى لنا عنه لكل قسم أو كلية تتخصص في اللغة العربية، تشجيعاً للشباب، وحثاً لهم على الاستزادة من المعرفة.

- ٦ -

ومن الضروري الإشارة إلى أهم دور الكتب الغنية بالمخطوطات العربية التراثية، ولكثرتها نكتفي هنا بالقليل منها...

في مصر:

- دار الكتب المصرية.
- مكتبة الأزهر الشريف.
- معهد المخطوطات العربية.
- مكتبة بلدية الاسكندرية.
- مكتبة بلدية طنطا.
- مكتبة بلدية سوهاج.
- مكتبة الجامع الأحمدي بطنطا.
- مكتبة معهد دمياط الأزهري.

في البلاد العربية:

- مكتبة جامع القرويين بفاس بالمغرب.
- مكتبة جامع القيروان بتونس.
- مكتبة جامع الزيتونة بتونس.
- المكتبة الوطنية بتونس.

- المكتبة الظاهرية بدمشق.
- مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق.
- مكتبة مجلس النواب العراقي ببغداد.
- مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد.
- مكتبة الحرم المي بمكة المكرمة.
- مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.
- دار الكتب بصنعاء.

في تركيا:

- مكتبات استامبول وهي غنية بالمخطوطات العربية.

في الغرب:

- مكتبة الاسكوريال بدمشق.
- مكتبة المتحف البريطاني.
- دار الكتب الوطنية بباريس.
- مكتبة لينتجراد.
- مكتبة الكونجرس بواشنطون.

والله ولى التوفيق،



التراث في الصحافة

- ١ -

الصحافة لسان الأمة، المعبر عن آمالها وآلامها، وعن شتى مقومات الوجود الإنساني والحضاري فيها.

والتراث هو المميز أو المصور لوجود الأمة التاريخي والفكري، وقد أثبتت مقومات التراث الأصلية في تجربتها الإنسانية الأولى أنها حافزة دائماً إلى الإبداع الحضاري، حتى لقد ظل العقل الإنساني قروناً كثيرة يبدع في شتى مجالاته الممكنة من خلال تلك المقومات دون أن يكون هناك أي صدى لدعوى التناقض الحضاري بين تلك الأصول، وبين ذلك الإبداع الخلاق الذي تناهى عبر الزمن، بل أن الثابت أن حقيقة التراجع التي أصابت العقل العربي إنما وقعت عندما بدأ الانفصال يدب بين تلك القيم الأصيلة ومعطياتها وبين الواقع.

التراث هو الهوية الثقافية للأمة، وهو مظهر لأصالة الأمة وحضارتها فالأصالة تتألف من عنصرين:

أولهما: التراثية أو المحافظة الواعية المتقنة بتعاطف إلى التراث: أصوله ونماذجه.

والثاني: الذاتية المبدعة: وعن التراثية يقول لانسون: إن أمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الاجيال السابقة، وبؤرة للتيارات

المعاصرة.. ويقول جوته: في كل فن توجد صلة نسب، فإنك إذا رأيت فناناً كبيراً فلا بد أنه قد وعى أحسن ما عند أسلافه، وأن هذا هو الذي جعله عظيماً، الرجال لا ينبثقون من الأرض، بل إنما يأخذون أصلهم من القديم.. ولذلك يقول «اليوت» إذا أردت أن تجدد في الشعر فيجب أن تكون جذورك عميقة في الماضي.

التراثية تصل الأدب بالاصالة، والأصالة تحتضن المعاصرة، إذا كانت بمعنى التجاوب المستمر مع الموقف الحضاري المعاصر، بحيث تتفاعل هذه المعاصرة مع الماضي بقيمه الباقية، ومواريثه الخالدة والشعورية على الدوام حتى ليقول أحد النقاد الفرنسيين: الفن كله في أن يهب الأدب الفكرة القديمة شكلاً جديداً، وهذه الفنية هي كل ما تملك البشرية جمعاء من إبتكار.

وإذا كان التراث له تلك الأهمية في حياتنا، في حاضرنا ومستقبلنا، وفي فكرنا وحضارتنا، فإن الصحافة عليها العبء الكبير في المحافظة على التراث ونشره وزيادة وعينا به، والا لتخلت عن وظيفة من أكبر وظائفها.

فعناية الصحافة بالتراث نابعة من إيمانها المطلق بأنه جزء أصيل من حياة الأمة الفكرية، ومن ثم يكون لا بد من أن يصبح وهو الشغل الشاغل للصحافة كوظيفة من وظائفها، والتزام من جوانب التزامها.

- ٢ -

ومن قبل كانت الصحافة في مصر لا تبخل على التراث بنشر أخباره ولا بالكتابة عن بعض كتبه المنشورة أو المخطوطة، ولا بالدراسات عن بعض كتبه المحققة.

وكانت مجلة معهد المخطوطات الشهرية تعنى لكل ما يتصل بالتراث والمخطوطات عناية فائقة، ثم توقفت المجلة في مصر، لتصدر في الكويت من جديد.

ومن مجلاتنا ما لا تبخل بالنشر عن التراث وما يتصل به: كمجلة مجمع

اللغة العربية في القاهرة، ومجلة الهلال، ومجلة جمعية التاريخ.

ومن المجلات العربية التي قامت لخدمة التراث: مجلة المورد العراقية، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجلة المجمع العراقي.

ويجيء الإعلان في الصحف عن الكتب التراثية ليعوض ما نقص من حجم الدراسات للتراث. ولكتاب الأغاني وكتاب ألف ليلة وليلة قصب السبق في الاستحواذ على مختلف وسائل الإعلان.

على أن الصحف بدأت تجعل من صفحاتها ميداناً للخبر الصحفي، أكثر مما تجعل منها مجالاً لنشر المقالة التراثية أو غير التراثية.. وهذا معناه ـ أن غيرت الصحف جلدها، لتصبح صحافة خبر لا صحافة رأي ومقالة ـ أن تتخلى الصحف عن واجبها التراثي.. وذلك ولا ريب لا يخدم قضية الثقافة بحال، ذلك أن جيل اليوم إنما سرى الضعف الثقافي والفكري اليهم من بعدهم عن التراث وعدم التصاقهم به، فما بالنا بجيل الغد الذي ستهمله الصحافة بإهمالها للدراسات التراثية.

ـ ٣ ـ

وصارت الصحافة عندنا في مصر اليوم لا تتسع لدراسة الاعلام التراثية الا من خلال قضية، كما لا تتسع للنصوص التراثية، ولا للحديث عن كتب التراث.. وكأنها تكتفي بما تنشره من أخبار عن التراث وكتبه، عوضاً عما سوى ذلك من دراسات.

ولا غنى لنا اليوم عن إنشاء معهد عال أو كلية لدراسات التراث وتحقيقه ونشره ولا عن إنشاء مجلات تراثية على نمط مجلة المورد العراقية مثلا..

إن تراثنا العربي غني بكنوزه وبجواهره الثمينة النفيسة، وبما أسداه للمعرفة الإنسانية من أفكار جديدة في شتى العلوم وجوانب الحياة، والعلماء ومراكز البحوث والجامعات في الشرق والغرب تعرف لهذا التراث قيمته وأهميته في الثقافة الإنسانية.

وعظمة جيلنا من الشيوخ والأجيال السابقة، التي خرجت أمثال حسن العطار، ورفاعة الطهطاوى، وعلي مبارك، ومحمد عبده، وحفنى ناصف، والمراغى، ومصطفى عبد الرازق، ومحمود شلتوت، والمنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي، والزيات، وأحمد أمين وزكي مبارك ومحمد لطفي جمعة والعقاد، وطه حسين، وعبد العزيز البشري، وأحمد شوقي وحافظ، وأحمد زكي أبو شادي، وناجي وأحمد محرم، وسواهم من الأعلام والرواد.. إنما يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى التراث، والعناية به والتزود من معين ثقافاته.

التراث الإسلامي حافل بالموسوعات الضخمة في شتى علوم الشريعة والفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد.. والتراث التاريخي يحفل بكتب نالت شهرة عالمية، من مثل: تاريخ الطبري والمسعودي وإبن الأثير والبغدادي والنقدي نقف مذهولين أمام موازنة الآمدى، ووساطة الجرجاني وأسرار الفصاحة لإبن ستان والعمدة لإبن رشيق ونقد الشعر لقدامة والصّناعتين لإبي هلال وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني والمثل السائر لإبن الأثير.. وفي الموسوعات الأدبية لا نجد أروع من كتب الجاحظ وابن قتيبة وإبن عبد ربه وأبي الفرج الأصفهاني والحصري وسواهم.

وفي القصص والأسحار نجد أمثال: البخلاء للجاحظ وألف ليلة وليلة، ونشوار المحاضرة والفرج بعد الشدة للتنوخي، وقصة أبي زيد وعنترة والظاهر بيبرس وإعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس للاتليدي ـ وفي الشعر مئات الدواوين الشعرية الرفيعة الخالدة.

وهكذا في مختلف جوانب العلوم والثقافات.

إن تراثنا العربي هو جزء كبير من ثقافة الانسانية ولقد كنا ـ في مرحلة التعليم نحفظ مقامات الحريري والهمذاني ونطيل القراءة في الكامل للمبرد، ونهج البلاغة للامام علي، وفي البيان والحيوان للجاحظ، والأمالي للقالي.

وهذا فضلاً عن أن الكثير من الكتب الدراسية كانت مملوءة بعيون التراث، نستظهر منها جياد القصائد، وحسان الخطب والمقامات، إلى ما كنا

نحفظه من دواوين الشعراء.

أما اليوم فقد صارت مناهج الدراسة خِلْواً من كل ما يتصل بالتراث، لأنها مناهج غريبة اصطنعناها لأنفسنا منذ عهد الاختلال وبقيت بعد عهد الاحتلال، لتلوي أعناقنا، وتحجب أبصارنا عن التراث وثقافاته، مما نتج عنه ضعف الشباب في ثقافته العربية ضعفاً مزرياً، وقد اكتفى الشباب العربي بكتب الدراسة الضئيلة، وانصرفوا عن التراث ومصادره جملة، وصحافتنا مطالبة اليوم بالعودة إلى مـزيـد مـن اهتمامهـا بـالتراث وكنـوزه ومصـادره وأعلامه، وإلى مزيد من الدعوة إلى تحقيق التراث ونشره، وجعله جزءا أصيلا من مناهجنا الدراسية.

ويا حبذا لو تحولت مجلة فصول إلى مجلة تراثية لتضمن ذيوعها وتضمن مع الذيوع الربح بدلاً من أن تظل عبئاً على الهيئة العامة للكتاب وعلى موارد الدولة..

وعسى أن تعود الكتب التراثية إلى حلقات الدراسة في جامعاتنا المختلفة وأن تصبح كتباً مقررة، وأن نشجع دور النشر المعنية بالتراث ولو بتخفيض الضرائب عليها بنسبة مهما كانت ضئيلة كخمسة في المائة مثلاً، كما نرجو أن تستقل دار الكتب المصرية عن الهيئة العامة للكتاب، وأن يعود القسم الأدبي في دار الكتب من جديد ليعمل في خدمة التراث وتحقيقه.. فذلك كله من الروافد الفعلية للصحافة لكي تستطيع أداء ـ واجبها نحو التراث..

إن الثقافة المعاصرة لا بد لازدهارها من الحرص الكامل على الاصالة وعلى المعاصرة معاً.

وبدون الأصالة لا يبقى للمعاصرة سند قوي يدعمها ويشد من أزرها.

وعسى أن نرى صفحة أسبوعية تراثية في صحفنا تقدم للقراء كل ما يجب أن يقرؤوه من كل ما يتصل بالتراث وثقافته الأصيلة المتميزة.. إننا لم نعد نقرأ في صحفنا شيئاً عن أعلامنا التراثيين، ولا عن كتبنا التراثية، ولا عن الفكر التراثي العربي الإسلامي وصلته بالثقافة المعاصرة بينما كان ذلك كله

ركناً كبيراً من أركان صحافتنا في الربع الثاني من القرن العشرين.

والملحوظ أن ضعف الجيل الجديد في الثقافة إنما يرجع أولاً إلى بعده عن التراث وانعدام قراءاته فيه.

فإذا كنا نريد نهضة ثقافية جديدة، فإن الواجب الملقى على عاتقنا يحتم علينا أن نعنى عناية كبيرة بالتراث وثقافاته، وأن نصل بين التراث وبين الشباب بصلات وثيقة عن طريق مختلف وسائل الأعلام.. وبخاصة الصحافة.. والله ولي التوفيق.

القرآن كتاب الله الخالد

﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى للمُتَّقِينَ﴾[١]

إن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله اسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم المأثورة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر.

وانما تنتسب الى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف. وقد جاء القرآن الكريم، على كثرته وطوله، متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: **﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهم إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾**[٢].. **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾**[٣].

وبعد فانك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الحكمة وفصل الخطاب مجلوة

---

(١) سورة البقرة آية ٢.

(٢) سورة الزمر آية ٢٣.

(٣) سورة النساء آية ٨٢.

عليك في منظر بهيج ومعرض رشيق، ونظم أنيق، متعاصي على الاسماع، ولا ملتو على الافهام، ولا مستكره في اللفظ، يمر كما يمر السهم، يضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح في البدن، والنور المسيطر في الافق.

والغيث الشامل، والضياء الباهر «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والادب والشعر تحبها وتعشقها وتجيدها وترفع من منزلة الشاعر المحلّق، والخطيب البليغ، تنوه بهما، وكانت أكثر ما يكون خطيبا وشاعراً واديباً، فاذا نبغ في القبيلة شاعر، او ظهر فيها فصيح، استبشرت وافتخرت وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، واتت القبائل الاخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء، وللفراغ الكثير الذي كانوا فيه، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستمرة، فكانت حاجتها الى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون.

ومن ثم رأينا شعراء يلقي اليهم العرب القياد، يصغون لقولهم ويسيرون وفق رأيهم ويمضون ما يحكمون به بينهم. يضعون الشريف الغاية، ويرفعون الخامل الوضيع فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما، وكان النابغة سفيرا للعرب في قصور المناذرة والغساسنة، وحكما بين الشعراء في سوق عكاظ، وكان الاعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان، ويسافر الى الحبشة وكان قس بن ساعدة الايادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين الى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء، والشعر والشعراء.. وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فاذا شاء أعلن السلام ودعا اليه.

فلما بعث محمد الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه برسالته الى الناس كافة نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونور وبشرى، فيه دعوة الى التوحيد، والطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله ان يبلغه البشر، من شئون الحياة وأخبار الامم، وقصص دعاة التوحيد: من المرسلين والانبياء، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم، من تشريع، وعبادة، وأخلاق وفضائل، وآداب، وتوجيه كامل الى المثل العليا.

نزل هذا الكتاب الكريم، والنور الخالد، والوحي الصادق والدستور العظيم، فكان في اعلى درجات البلاغة، منازل الفصاحة، لا يدانيه بيان، ولا يشابهه او يقاربه ما كان عند العرب من شعر، وخطب، ومحاورات، ومفاخرات ومنافرات، ووصايا، ومثل، وحكمة وكهانة.

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم، فخروا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته، مقرين بأنه نسيج وحده، وعلم مفرد في طبقته في البيان.

بهر الشعراء منهم، فخرست السنتهم وسكتت شاعريتهم، وضاع الهامهم كما يضيع السراب في الصحراء وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول.. وذهبت كل بلاغة في تياره، وضلت الفطر الادبية العالية، وفرت أمام أضواء نهاره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين، والايمان برسالة سيد المرسلين فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، يؤلبون الشرك على دعوة الاسلام.. فقالوا في القرآن الكريم: هو شعر، هو سحر، وهي اساطير الأولين، ولو نشأ لقلنا مثل هذا، وان هذا إلاّ اختلاق، ورموا محمد صلى الله عليه وسلم بالجنون.

فتحداهم الله عز وجل، ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربي، قال الله تعالى:
﴿وَاِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا

وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُون افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٥] .

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ★ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ ﴾[٦] .

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ★ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[٧] . وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٨] ، فسجّل عجز البَشر كافة وبيّن أنه لا يستطيع الانس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدي ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة، التي هي فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الأنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته، ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً، ومن الافتراء والجنة، ومن الكذب والخيال ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ★ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ★ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ★ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[٩] .

---

(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٣ - ٢٤ .
(٥) سورة هود الآيتان ١٣ - ١٤ .
(٦) سورة الحاقة الآيتان ٤١ - ٤٢ .
(٧) سورة الطور الآيتان ٣٣ - ٣٤ .
(٨) سورة الاسراء آية ٨٨ .
(٩) سورة النجم الآيات ١ - ٤ .

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ ★ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ★ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ★ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ★ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ★ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ★ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ★ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلمُتَّقِينَ ★ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ★ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلى الكَافِرِينَ ★ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ﴾[10].

وهكذا ردَّ الله عز وجل عليهم وبيَّن كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبيّن انه منزل من السماء، وانه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة وتحداهم ـ ان كانوا كافرين وكاذبين ومضللين ـ الى الاتيان بمثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا أمام التحدي، وباءوا بالخزي والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية او آيات أو سورة أو سور، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

ثم امتدت الاجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه في المشارق والمغارب فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعي قدرته على مثل هذا البيان.

واقرأ ان شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل، في ذلك فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين. وتعلم ان القرآن يخالف نظم كلام الآدمين، وأراد مسيلمة الكذاب فيما يروى أن يقول كلاما، فخزى وعجز، وبان عليه العمى والحصر، وباء بالخسران، وسوء المنقلب، وأين يقع قوله «والليل الدامس، والذئب الهامس، وما قطعت «اسيد» من رطب ولا يباس..» وقوله «المبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا،

(١٠) سورة الحاقة الآيات ٤١ ـ ٥١.

والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، لقد فضلتم أهل الوبر ، وما سبقكم اهل المدر » وغير ذلك من كلامه من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم يؤمنون ايمانا صادقا ، بأن لا سبيل الى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته واعجازه، وان ذلك كله شيء انفرد به وحده، وأنه كلام الله وكتابه وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه انما بنيت على هذه المعجزة، وذلك الكتاب الحكيم المبين، الذي عجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله.. وستمضي وتتوالى الاجيال وهو يضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم **﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ﴾**[١١] .

---

(١١) سورة الزمر آية ٢٣ .

فواتح سور القرآن

الآراء في معاني ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة، والاختلافات حولها متعددة، أهي أسماء الله تعالى، أم أسماء للسور نفسها، أم حروف لا أسماء وما معناها حينئذ؟، أم ان الله تعالى هو الذي ينفرد بعلم ذلك، وعقل الانسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها، أم هي رموز لمعان دينية او صوفية.. الخ.

اختلاف كثير لا حصر له، ولقد رجح من قبل الامام جار الله الزمخشري أن هذه الفواتح عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب: «إنَّ هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة فدونكم مجال التحدي والاعجاز فأتوا بمثله ان استطعتم»، وسبقه الى ذلك الباقلاني.

ولقد عرض لي رأي جديد في هذا الموضوع، وخلاصته هي: افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات: ألم - المر - المص - كهيعص - طسم - طس - يس - حم عسق - حم - ص - ق - ن - طه - الر: وهي كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع اسكان هذه الحروف فمثل، «الم» تقرأ هكذا «الف لام ميم»، والحروف التي كررت في هذه الفواتح هي اربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين، ومجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفا.

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة؟ يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التي هذه بعض حروفها، والاشادة بالقرآن الكريم ـ كتاب العربية الخالد ـ الذي تلك بعض آياته.

وكان الله عز وجل يقول للناس: هذه هي اللغة العربية لغة البيان والفصاحة وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز، وكتاب العربية المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها انسان، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية، وجاء في أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة نزل على محمد النبي العربي العظيم، فكان معجزته الباقية الخالدة، وعلى الامة العربية التي اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد في نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة في العالم كافة، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد في وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها في جميع الارجاء في تهذيب أساليبها وألفاظها، ورقي معانيهاوخيالاتها وافكارها، وفي السمو بأغراض الكلام فيها، ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة، فكأن الله عز وجل يشير بذلك الى ان هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجدا للعربية وآدابها، وتكريما للعرب وسموا بمنزلتهم في قيادة الحياة الانسانية، فالقائد الأعظم الذي اختير لنشر هداية السماء في الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربي، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذي يسن الله فيه رسالة محمد ودعا فيه الى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والاحسان هو القرآن وهو كتاب عربي مبين. وكأنه يوحي الى هذه الامة العربية: أن آمنوا بمحمد ودعوته وبكتابي ورسالته فهو فخر لكم على مر الايام، ومجد سيطوق اعناقكم طول الاجيال والأحقاب.

وخلاصة رأيي هذا أن هذه الابتداءات تشير الى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية، والى أن الرسالة السماوية وهي اخر الرسالات نزل بها القرآن العربي المبين، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين، والى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طول العصور.

قراءة من تراث ابي العلاء النقدي

ابو العلاء الناقد الادبي

نحن مع هذا الكتاب، الذي صدر منذ قليل للدكتور السعيد عبادة من نحو ستمائه صفحة، متضمنا دراسة جادة وعميقة للنقد العلائي، موفقا في عنايته الكبيرة بتوثيق الكتب المنسوبة لأبي العلاء توثيقا علميا دقيقا حتى إنه ليفيض من الحديث عن الكتاب اللامع العزيزي، وهو شرح لشعر المتنبي، ومعجز احمد وهو اختصار لديوان المتنبي، مثبتا الزيف في نسبتها الى المعري، ومرجحًا انهما ليسا بالتحقيق من مصنفاته، وان كتاب معجز احمد هو كتاب معاني شعر المتنبي نفسه وذلك في اكثر من خمس عشرة صفحة.

يتحدث المؤلف عن نهج ابي العلاء النقدي حديثا طويلاً، سواء في موقفه من توثيق النصوص وتحقيقها وتحليلها، أم من آرائه في الموازنات الأدبية، مستقصيا مصادر النقد العلائي من روايات مأثورة عنه، ومن شعره ورسائله وكتبه، ويوضح آراء الشاعر الناقد الفيلسوف في الصنعة الفنية، والابداع الشعري وموسيقى الشعر وفي التيار الفني، ومن اللغة والمعاني والصور عند الشعراء، ومن القيم الجمالية والمقاييس العامة والمذاهب العامة والخاصة عند ابي العلاء الناقد.

ويقول في مقدمة كتابه:

كان اختياري له ـ للنقد العلائي ـ واقبالي عليه، من اجل جدته التي يمكن ان يجليها البحث، لكن تجلية هذه الجدة لم تكن بالامر السهل بل كانت معاناة متصلة.

والكتاب خمسة فصول:

الاول من المؤثرات العديدة في شخص شاعرنا الكبير، والثاني من مصادر النقد العلائي، والثالث من الاتجاهات الشعرية لابي العلاء ومن خصائص مذهبه النقدي، والرابع في تأثير النقد العلائي في ادبه، والخامس في اثر الناقد ابي العلاء في الدارسين القدماء.

وهو على الجملة ثمرة اطلاع واسع على المكتبة العلائية، وعلى ما كتب عن شاعرنا الخالد، وعلى اتجاهات النقد ومذاهبه، وبلا ريب فهو ثمرة جهد علمي كبير.

السيرة النبوية

.. لابن هشام

- النسَب النبوي وما يتصل به من تاريخ العرب
- الواقدي المؤرخ وأثره في ابن هشام
- أسلوب ابن هشام قريب من لغتنا المعاصرة.

ما أجل كتب التراث العربي في السيرة النبوية، وما أعظم عناية المسلمين بتدوين سيرة رسول الله ﷺ ..

وعناية العرب بالسيرة باب من ابواب عنايتهم بالتاريخ فضلا عن الجانب الديني الذي حفز صحابة رسول الله ﷺ الى تدوين السيرة العطرة، وتلاهم في هذه العناية التابعون ومن بعدهم من اعلام المسلمين..

وبعد ان انتهى المسلمون من جمع القرآن الكريم وكتابة المصاحف وتوزيعها على الامصار في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه، عادوا الى جمع احاديث رسول الله ﷺ. وقد عني الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز بذلك عناية كبيرة. وفي احاديث رسول الله الكثير مما يتصل بالسيرة النبوية الشريفة وبالمغازي.. وكان احد ابواب الكتاب الذي جمع بأمر عمر بن عبد العزيز من أحاديث رسول الله: «باب المغازي والسير».

وبعد ذلك بذل العلماء الجهود الضخمة في تدوين سيرة رسول الله، ومغازيه، وتراجم صحابته، عليهم رضوان الله، وتتبعوا اخبار السيرة الشريفة وجمعوها من أوثق المصادر، وكانت الكتابة فيها وفي الغزوات والفتوحات

الاسلامية اهم واقدم الكتابات التاريخية عند العلماء المسلمين، وبخاصة بعد بدء عصر التدوين في النصف الثاني من العصر الاموي.

وقد وزع المؤرخون جهودهم في تدوين كل ما يتصل برسول الله ﷺ، فكتب بعضهم في السيرة، وكتب البعض الاخر في المغازي والملاحم والفتوحات وظهر علم سُمّي «الطبقات وتراجم الرجال» لشدة عنايتهم بتاريخ صحابة رسول الله وسيرتهم وسيرة التابعين وتابعي التابعين.

وكان من اوائل من كتب في السيرة النبوية عروة بن الزبير (٢٣ ـ ٩٤ هـ)، ثم ابان ابن الخليفة عثمان بن عفان المتوفي عام (١٠٥ هـ / ٨٢٣ م)، ثم وهب ابن منبه (١١٠ هـ / ٧٢٨ م)، وشرحبيل بن سعد، الذي يقول عنه ابن حجر: لم يكن هناك احد اعلم بالمغازي والبدريين منه وتوفي عام (١٢٣ هـ / ٧٤٠ م)، وعاصم بن قتادة المدنى الانصاري (١٢٠ هـ) ومحمد بن الانصاري (١٣٥ هـ) ومحمد بن اسحاق شيخ كتاب السيرة (٨٥ ـ ١٥١ هـ)، وسيرته اصل لكتاب السيرة النبوية لابن هشام المتوفي (عام ٢١٨ هـ).

ولا شك ان عروة بن الزبير بن العوام هو رائد المدرسة الأولى من مدارس تدوين السيرة، وابن اسحاق هو رائد المدرسة الثانية، وابن هشام هو رائد المدرسة الثالثة.

وعروة، امه هي اسماء بنت ابي بكر الصديق، وخالته هي السيدة ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها، واخوه هو عبد الله ابن الزبير. وفي عروة قال الخليفة عمر بن عبد العزيز: ما احد اعلم من عروة. ومدونات عروة في السيرة مصدر لجميع مؤرخي سيرة رسول الله ﷺ..

وعلى نهجه سار الزهري الذي كان لا يترك شابا ولا كهلا الا سألها، ولا يترك عجوزا الا سألها، ولا يترك رجلا ولا امرأة الا اخذ عنهما ما يعلمانه من اخبار سيرة رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك كان يتردد على المجالس وعلى الرواة الثقات في منازلهم، آخذا عنهم، متحريا منهم عن الروايات الصادقة. ويقول فيه الطبري (٣١٠ هـ): كان الزهري مقدما في السيرة وفي

العلم بمغازي رسول الله واخبار قريش والانصار، راوية لاخبار رسول الله واصحابه.

وكان منهج عروة والزهري ورجالها هو الحديث عن حياة رسول الله قبل البعثة وبعدها حتى الهجرة، ثم عن حياته في مكة بعد البعثة حتى الهجرة، وحياته في المدينة المنورة بعد الهجرة .

أما ابن اسحاق فكان جوابة آفاق يأخذ من افواه التابعين والعلماء كل ما يتصل بالسيرة والمغازي، حتى لنراه حينا في مدينة رسول الله، وحينا في العراق، وحينا في مدينة رسول الله، وحينا في الشام ومصر وقال عنه الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحاق، ويقول عنه السهيلي في كتابه «الروض الآنف»: أما في المغازي والسير فلا تجهل امامته فيهما، وقال فيه ابن شهاب الزهري: من اراد المغازي فعليه بابن اسحاق.

وأما ابن هشام فهو رائد المدرسة الثالثة من مدارس مؤرخي السيرة النبوية الشريفة، ومكانه بينهم معروف، وقد توفي عام ٢١٨ هـ / ٨١٣ م، وهو الذي اكمل ما بدأه ابن اسحاق، حيث اعتمد على سيرته، وهذبها، وحذف منها الروايات التي أخذها ابن اسحاق عن القصاص وغيرهم. وقد كان ابن هشام من العلماء والمؤرخين وكتّاب السيرة الاجلاء، وهو مصري عاش على أرض وادي النيل، وتفقه في العلوم وفي التاريخ والسيرة على أيدي العلماء في حلقات جامع عمر بن العاص في الفسطاط، وكان متقدما وإماما في علم النسب وله كتاب «أنساب حمير وملوكها»، وكتاب «شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب». وعنايته بانساب حمير وتاريخهم راجع إلى انه هو حميري معافري من مصر، وأصله من البصرة وتوفي بمصر ـ الفسطاط ـ.

وهكذا وصل الاهتمام بالسيرة والمغازي والانساب الى ابن هشام، وهي علوم اسلامية لها مقام كبير في العلوم العربية. وتشتمل السيرة من بينها على تاريخ حياة رسول الله من مولده الى بعثته، ثم من مبعثه الى هجرته، ثم حياته

في المدينة، ومغازيه ﷺ، وكل ما يتصل بقيامه بالدعوة، وتبليغه الرسالة للناس.

وكتاب السيرة لابن هشام كتاب حافل بكل ما يتصل بحياة رسول الله ﷺ.

يتحدث فيه ابن هشام عن النسب النبوي الشريف وما يتصل بهذا النسب من التاريخ العربي عامة، تاريخ الحجاز ومكة والمدينة خاصة، كتاريخ ابرهة الحبشي، وقصة اصحاب الفيل، وهزيمة الاحباش على ابواب مكة، ومن ملك الحبشة بعد ابرهة، وظهور سيف بن ذي يزن واستنجاده بكسرى لاخراج الاحباش من بلاد اليمن، وسوى ذلك.

وهذا هو الباب الاول من ابواب كتاب ابن هشام الخالد العظيم.

والباب الثاني الذي يليه هو مولد النبي ﷺ وما يليه، وما يتصل به من اخبار وتاريخ ومرويات: كغلبة قصي على أمر مكة، وانتقال ولاية البيت اليه، واختلاف قريش بعد قصي، وحلف الفضول، وحفر زمزم، ونذر عبد المطلب ان ينحر ابنه وقصة فدائه، وحديث الرضاع وكفالة ابي طالب عم رسول الله، وموت آمنة ام الرسول بالابواء، ووفاة عبد المطلب، وقصة سفر ابي طالب بالرسول الى الشام ولقاء بحيرا الراهب بالرسول، وزواج رسول الله بأم المؤمنين خديجة، وبنيان الكعبة وغير ذلك.

ويلي ذلك الباب الثالث وهو عن مبعث رسول الله ﷺ، ويجعله ابن هشام كتابا، ويذكر فيه كل احداث التاريخ الاسلامي منذ البعثة النبوية حتى الهجرة الخالدة.

والقسم الرابع من الكتاب هو عن حياة رسول الله منذ الهجرة وعن غزواته ﷺ، وعن وفاته صلوات الله عليه.

وبذلك ينتهي الكتاب، وينتهي بانتهائه تاريخ السيرة العطرة الخالدة.. التي دونها ابن هشام ومن قبله ابن اسحاق، والتي شرحها السهيلي شرحا رائعا لا يصل الى مستواه احد..

ولقد هاجر ابن هشام من البصرة الى مصر بعد ان اكتمل علمه.. وفي الفسطاط نشر ما يعرف من أخبار التاريخ والسيرة، ولقي في الفسطاط الامام الشافعي وسواه من العلماء، وأخذ عنهم، وكان ابن هشام يقول عن الشافعي: ما ظننت ان الله عز وجل خلق مثل هذا.. وكان ميل ابن هشام الى الاخبار شديدا، وقاده ذلك الى حبه الشديد للمغازي والسير.

وأصل سيرة ابن هشام هو سيرة ابن اسحاق، وكان زياد بن عبدالله البكائي أثبت الناس في سيرة ابن إسحاق يرويها ويحفظها، ويأخذها عنه العديد من الرواة والمعنيون بالسيرة العطرة، وقد توفي البكائي عام ١٨٣ هـ.

وقد أخذ ابن هشام عن البكائي سيرة ابن اسحاق، وأعجبته اعجابا شديدا، ولكنه رأى فيها أشياء، أنكرها فأزمع تهذيبها وكتابتها في ثوب جديد..

وكان تهذيب ابن هشام لسيرة ابن اسحاق عملا رائعاً.

وكان هذا التهذيب بزيادات زادها ابن هشام على الاصل، وبتفسير ما ورد فيها من أشعار وغيرها، وبتصويبات كثيرة صوبها ابن هشام، ونفى بها أخطاء ابن اسحاق أو تقصيره، ومن مثل ذلك:

١ - ما ذكره ابن اسحاق فيمن قتل ببدر من المشركين، ومن بينهم كما ذكره: السائب بن ابي السائب فيستدرك ابن هشام على ذلك، ويقول: السائب بن أبي السائب شريك رسول الله ﷺ، الذي جاء فيه الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه: «نعم الشريك السائب، لا يشاري ولا يماري». وكان أسلم فحسن اسلامه فيما بلغنا.

٢ - وفي ابن اسحاق ما نصه: والتمس لرسول الله ﷺ الرضعاء، فيقول ابن هشام: المراضع، وفي كتاب الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام: «وحرمنا عليه المراضع» والمراضع جمع مرضع أو مرضعة، والرضعاء، جمع رضيع وهو الطفل الذي يحتاج الى الرضاع..

٣ ـ ويذكر ابن اسحاق قصيدة في مدح سيف بن ذي يزن لابي الصلت الثقفي، ويقول ابن هشام: وتروي لامية بن أبي الصلت، ويذكر ابن اسحاق في آخر القصيدة البيت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

فيقول ابن هشام: هذا ما صح له مما روى ابن اسحاق منها، الا البيت الاخير، وهو «تلك المكارم..» فانه للنابغة الجعدي..

٤ ـ ويذكر ابن أسحاق عن ابن المسيب ان عبد المطلب لما حضرته الوفاة جمع بناته الست، وقال لهن: ابكين علي حتى اسمع ما تقلن قبل ان أموت، فأخذت كل بنت من بناته ترثيه بقصيدة، ويذكر ابن هشام هذه القصائد ويقول بعد ذكره لها كما رواها ابن اسحاق: ولم ار احدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر، الا أنه لما رواه عن ابن المسيب كتبناه هنا..

٥ ـ ويذكر ابن اسحاق شعرا ينسبه لابي بكر في غزوة عبيدة بن الحارث، وأوله «أمن طيف سلمى»، فيقول ابن هشام: واكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لابي بكر رضي الله عنه، ويقول السهيلي في «الروض الانف» ٥٦/٢: ويشهد لصحة كلام من انكر ان تكون له ما روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عائشة، قالت: كذب من اخبركم ان ابا بكر قال بيت شعر في الاسلام..

وينسب ابن اسحاق للامام علي أبياتاً في اجلاء بني النضير وقتل كعب بن الاشرف. فيقول ابن هشام: قالها ـ أي هذه الابيات ـ رجل من المسلمين غير علي بن ابي طالب، فيما ذكر لي اهل العلم بالشعر.

٦ ـ وهذا الى تصويبات واستدراكات كثيرة لا حصر لها، أشار اليها ابن هشام استدراكا على ابن اسحاق.

وكان ابن اسحاق في كتابه المغازي قد جعله ثلاثة ابواب كبرى:

ـ المبتدا أي تاريخ ما قبل الاسلام

ـ المبعث اي تاريخ الرسول الاعظم منذ البعثة حتى الهجرة.

ـ المغازي وهو يشمل تاريخ رسول الله في المدينة وغزواته وسراياه. وفي سيرة ابن اسحاق استقصى اخبار السيرة من كل الافواه، حتى من القصاص ومن أهل الذمة، وبسبب ذلك تعرض لنقد فقهاء المدينة، وفي مقدمتهم الامام مالك، مما دفع بابن اسحاق الى الرحلة الى بغداد، حيث لقي هناك التقدير والرعاية ولقيت سيرته الذيوع والانتشار..

ومن اجل ذلك نفى ابن هشام من السيرة كل ما أخذ على ابن اسحاق من مؤاخذات من هذا القبيل وغيره.

ولا ننسى أثر الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ: ٧٤٨ ـ ٨٢٣ م) في سيرة ابن هشام، وكان الواقدي من أهل المدينة، ولد وعاش فيها، وأخذ عن علمائها، وكان اعلم الناس بالسيرة وبالمغازي، وطبقت شهرته الافاق، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات واخبار رسول الله صلوات الله عليه، والاحداث التي كانت في حياته الشريفة وبعد وفاته صلوات الله عليه، كما يقول البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد».

وكان الواقدي يقول: «ما أدركت رجلا من ابناء الصحابة وابناء الشهداء، ولا مولى لهم، الا سألته: هل سمعت احدا من أهلك يخبرك عن مشهده، فاذا أعلمني مضيت معه الى الموضع فاعاينه. ولما قدم الرشيد المدينة في الحج عام ١٨٠ هـ سأل وزيره يحيى خالد البرمكي ان يطلب له رجلا عارفا بالمدينة ومشاهدها فاخبره بالواقدي وجاء الواقدي الى يحيى، فقال له يحيى: يا شيخ، إن امير المؤمنين، أعزه الله، يريد ان تصلي عشاء الآخرة في المسجد النبوي، وتمضي معنا الى هذه المشاهد، فتوقفنا عليها، فصنع الواقدي ذلك، فمنحه الخليفة هبة سنية، وكان الواقدي تاجر حنطة، فخسر في تجارته مائة ألف، وركبته الديون من كل جانب، فقالت له امرأته ام عبد الله: يا أبا عبد الله، ما قعودك؟ وهذا وزير امير المؤمنين قد عرفك وسألك ان تسير اليه حيث استقرت به الدار. فرحل من المدينة الى بغداد، ولقي يحيى البرمكي

الوزير، كما لقي الخليفة الرشيد، وولاه الرشيد القضاء الشرقي ببغداد. وفي نكبة البرامكة عام ١٨٧ هـ عاد الواقدي إلى المدينة..

وكان كتاب الواقدي في المغازي، وكتابه في الطبقات مصدرين وثيقين لكل الكتّاب والمؤرّخين لسيرة رسول الله، ولابن هشام بصفة خاصة، اذ رجع اليه وروى عنه، وافاد منه.. مما ظهر أثره في كتاب ابن هشام في السيرة النبوية..

وقد طبعت سيرة ابن هشام طبعات كثيرة، وشرحها كثير من العلماء، ومن بينهم السهيلي « ٥٨١ هـ »، واختصرها ابن المرحل. وزاد عليها زيادات كثيرة، ورتبها على ثمانية عشر مجلسا، وسمّاها « الذخيرة في مختصر السيرة ».

وكانت سيرة ابن هشام من اجلّ كتب التاريخ والادب والسيرة، وصارت موضع الاهتمام من كل الطبقات والافراد في جميع العصور حتى يومنا هذا..

ويمتاز اسلوب ابن هشام في السيرة النبوية بالجمال وبالبلاغة والامتاع وشدة التأثير، والقرب من لغتنا المعاصرة، واساليبنا الراهنة اليوم، واللهجة المصرية المعاصرة تكاد تكون جزءًا من أسلوب ابن هشام.

رحم الله ابن اسحاق، ورحم ابن هشام، ونفع بها وبآثارهما العلم والعالمين والمتعلمين.

الطبقات الكبرى

لابن سعد

- **التراث العربي زوّد الحضارة الإنسانية بالمعارف قبل الإسلام وبعده**
- **العلماء المسلمون هم أول من عني بعلم الطبقات وتراجم الرجال**
- **مؤلف الطبقات الكبرى عاش رحّالة في طلب العلم ولقاء العلماء**
- **الطبقات الكبرى موسوعة كبرى عن حياة الرسول والصحابة.**

- ١ -

عناية العرب بالتاريخ عناية شديدة، شملت في الاسلام جميع فروع التاريخ، وعلى الاخص سيرة رسول الله ﷺ، وتراجم صحابته، وتاريخ الغزوات والحروب الاسلامية الكبرى والملاحم التي خاضها المسلمون في كل مكان مع جيوش الدول الكبرى، والتاريخ العام.. وقد امد التراث التاريخي العربي الحضارة الانسانية عامة بكل المعارف اللازمة للوقوف على حالة العالم وحضارته قبل الاسلام وبعده..

في السيرة النبوية عني المسلمون بتتبع اخبارها من اوثق المصادر منذ وفاة رسول الله صلوات الله عليه، وكانت الكتابة في السيرة النبوية والفتوحات الاسلامية اظهر واسبق الكتابات التاريخية عند العلماء المسلمين منذ بدء عصر التدوين في النصف الاخير من العهد الاموي.

وحين جمع حديث رسول الله ﷺ في عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز، في كتاب، كان احد ابوابه «باب المغازي والسير»، وجاء المؤرخون

للسيرة ﷺ النبوية، فألف بعضهم في السيرة، والبعض الاخر كتب في المغازي والملاحم والفتوحات الاسلامية، وصار علم المغازي من اهم ما عني به المسلمون، ثم بدأت العناية بعلم اخر شديد الصلة بذلك، وهو «علم الطبقات وتراجم الرجال» الذي ألفت فيه كتب كثيرة مشهورة.

وكان من اوائل من كتبوا في السيرة النبوية عروة بن الزبير (٢٣ - ٩٤ هـ)، ثم ابان ابن الخليفة عثمان بن عفان المتوفي (عام١٠٠ هـ / ٧٢٣ م)، ثم عاصم بن قتادة المدني الانصاري (١٢٠ هـ)، وشرحبيل بن سعد الذي قال عنه ابن حجر: لم يكن هناك احد أعلم بالمغازي والبدريين منه، وتوفي عام (١٢٣ هـ / ٧٤٠م)، ثم وهب بن منبه (١١٠ هـ / ٧٢٨ م)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥١ - ١٢٤ هـ)، وعبدالله بن ابي بكر بن حزم الانصاري (١٣٥ هـ)، ومحمد بن اسحاق شيخ كتاب السيرة (٨٥ - ١٥٢ هـ)، وسيرته اصل لكتاب السيرة لابن هشام (٢١٧ هـ)، ثم الواقدي (٢٠٧ هـ)، ومحمد بن سعد صاحب كتابنا «الطبقات الكبرى» (٢٣٠ هـ) وهو في طبقات الصحابة والتابعين، ولا شك ان رائد هذه المدرسة الاولى من مؤرخي السيرة النبوية هو عروة بن الزبير بن العوام، وامه هي اسماء بنت أبي بكر الصديق، وخالته هي السيدة عائشة ام المؤمنين، وأخوه هو عبدالله بن الزبير، وكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد يقول عنه: «ما اجد اعلم من عروة»، وما دونه عروة بن الزبير في السيرة هو مصدر جميع مؤرخي سيرة رسول الله ﷺ.

وتلا عروة الامام الزهري (١٢٤هـ / ٧٤١ م) في أهمية ما دونه في السيرة، وكان لا يترك شابا ولا امرأة الا واخذ عنهما ما يعلمانه من اخبار سيرة رسول الله، ومن اجل ذلك كان يتردد على المجالس، وعلى الرواة الثقات في منازلهم، آخذا عنهم، متحريا منهم عن الروايات الصادقة، ويقول فيه الطبري: «كان الزهري مقدما في السيرة وفي العلم بمغازي رسول الله واخبار قريش والانصار، راوية لاخبار رسول الله واصحابه».

وكان المنهج الذي استنه كتّاب السيرة هو الحديث عن حياة رسول الله قبل البعثة، ثم عن حياته في مكة بعد البعثة حتى الهجرة، ثم عن حياته بعد الهجرة في المدينة.

اما ابن اسحاق فقد جاب الافاق ليأخذ اخبار السيرة والمغازي من افواه النابغين والعلماء، فهو حينا في بلده مدينة رسول الله، وحينا في مصر، وحينا في العراق، وقال عنه الشافعي: «من أراد ان يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحاق»، ولابن اسحاق كتاب في المغازي يحتوي على ثلاثة ابواب كبرى: المبتدأ اي تاريخ ما قبل الاسلام ـ والمبعث اي تاريخ الرسول الاعظم منذ البعثة حتى الهجرة ـ والمغازي وهو يشمل تاريخ رسول الله في المدينة وغزواته وسراياه.. وقد استقصى ابن اسحاق اخبار السيرة من كل الافواه، حتى من القصاص ومن اهل الذمة، وبسبب ذلك تعرض لنقد فقهاء المدينة، وفي مقدمتهم الامام مالك، مما دفع ابن اسحاق الى الرحلة الى بغداد، حيث لقي هنا التقدير والرعاية، ولقيت سيرته الذيوع والانتشار.

وجاء ابن هشام المصري (٢١٨ هـ / ٨١٣ م)، فاكمل ما بدأه ابن اسحاق، واعتمد على سيرته، وهذبها وحذف منها الروايات التي اخذها ابن اسحاق عن القصاص وغيرهم، وكان يعاصره الواقدي وغيره من كتاب السيرة والطبقات.

- ٢ -

واول كتاب يصلنا في الطبقات هو كتاب محمد بن سعد صاحب «الطبقات الكبرى»، أو «طبقات الصحابة والتابعين»

والذي نرجحه ان الواقدي هو اول من اقدم على تأليف كتب الطبقات وهو استاذ محمد بن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ) صاحب «الطبقات الكبرى» فابن النديم في كتابه «الفهرست» يذكر ان للواقدي كتابا باسم «الطبقات»، وللهيثم بن عدى (٢٠٧ هـ)معاصر الواقدي كتاب في «طبقات من روى عن النبي ﷺ من الصحابة، كما ان له كتابا في «طبقات المحدثين والفقهاء».

وقد الف كذلك في طبقات الصحابة كذلك ابن خياط (٢٣٠ هـ) وهو معاصر لابن سعد.

وكان الناس في عصر ابن سعد يجعلون الصحابة اثنتي عشرة طبقة:

الاولى قدماء السابقين الى الاسلام
ثم اصحاب دار الندوة
ثم مهاجرة الحبشة الأولى
ثم اصحاب العقبة الاولى
ثم اصحاب العقبة الثانية
ثم المهاجرون الاولون
ثم البدريون
ثم المهاجرون من بدر الى الحديبية
ثم اهل بيعة الرضوان
ثم من هاجر بين الحديبية وفتح مكة
ثم مسلمة الفتح
ثم الصبيان الذين رأوا رسول الله في حجة الوداع.

وكان بعض العلماء يجعل الصحابة طبقة واحدة، والبعض يقسمهم الى طبقات على نحو ما رأينا من حيث السبق الى الاسلام او شهود بعض المشاهد او غير ذلك، وعلى تلك السنن سار ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» وقد جعل ابن سعد للمكان اعتبارا متميزا في امر الطبقات، وبسبب ذلك وجدنا تكرارا في بعض التراجم، فقد كان يترجم للرجل مرة باعتبار زمنه، واخرى باعتبار مكانه، كما صنع مع استاذه الواقدي الذي ترجم له ترجمتين: ترجمة مع اهل المدينة، وترجمة مع اهل بغداد وان كان ذلك نادرا ما يقع في الكتاب.

والطبقة نعني بها ما نسميه اليوم بالجيل او بالمدرسة، وهم جماعة من الناس تنتظمهم فترة زمنية محدودة، ويتقاربون غالبا في السن، وفي لقاء المشايخ

والعلماء والاخذ عنهم.

وكتاب «الطبقات الكبرى» من اهم المصادر التاريخية في التراث الاسلامي، ويسمى ايضا كتاب «طبقات الصحابة والتابعين»، وفي الكتاب صور امينة لسيرة رسول الله ومغازيه ولطبقات الصحابة والتابعين، وهو وثيقة كبرى في تاريخ الاسلام في عصره الاول، وفيه الكثير من المعلومات التاريخية عن العصر الجاهلي، فالكتاب يجمع الكثير من الروايات عن السيرة والمغازي وطبقات اصحاب رسول الله وطبقات التابعين.

- ٣ -

مؤلف كتاب الطبقات هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، وقد ولد عام ١٦٨ هـ في البصرة، واخذ عن علمائها، وافاد من حلقاتها العلمية المزدهرة.

ولقد عاش ابن سعد حياته ما بين عام ١٦٨ هـ، و٢٣٠ هـ وكان من شيوخه المغيرة بن عبد الرحمن الذي يذكره في «الطبقات» ويقول عنه (٥: ١٥٦) انه كان ثقة، قليل الحديث، الا مغازي رسول الله ﷺ، أخذها عن ابان بن عثمان، فكان كثيراً ما تقرأ عليه، ويأمرنا بتعليمها، وكان ابان شيخا جليلا، ومؤرخا للسيرة ولمغازي رسول الله، شأنه في ذلك شأن نظرائه، من امثال: عروة بن الزبير، وشرحبيل بن سعد، وعاصم بن عمر (١١٩ هـ) الذي امره عمر بن عبد العزيز حين وفد عليه ان يجلس في مسجد دمشق ـ المسجد الاموي ـ فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة (٥: ٥٣ تهذيب التهذيب لابن حجر)، وكذلك وهب بن منبه الذي عثر «بيكر» على قطعة من كتاب له في المغازي في مجموعة اوراق بردى شت رينهاردت المحفوظة في هيدلبرج.

عاش ابن سعد رحالة في طلب العلم، ولقاء العلماء، لقي في المدينة الشيخ الواقدي (٢٠٧ هـ)، وذلك عام ١٨٧ هـ حين عاد الواقدي من بغداد اثر نكبة البرامكة، واستمر اتصاله به ولقاؤه له عشرين عاما، أي الى عام وفاة الواقدي، وهو عام ٢٠٧هـ.

والواقدي « ١٣٠ - ٢٠٧ هـ: ٧٤٨ - ٨٢٣ م) ولد وعاش في المدينة، واخذ عن علمائها، وكان يقول: ما ادركت رجلا من ابناء الصحابة وابناء الشهداء، ولا مولى لهم، الا سألته: هل سمعت احدا من أهلك يخبرك عن مشهده، فاذا اعلمني مضيت معه الى الموضع فأعاينه. وصار الواقدي اعلم الناس بالسيرة وبالمغازي، وطبقت شهرته الافاق، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات واخبار الرسول ﷺ، والاحداث التي كانت في حياته الشريفة وبعد وفاته ﷺ كما يقول البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد ».

وللواقدي كتاب المغازي، وهو مطبوع بتحقيق جونس في دار المعارف بمصر، حيث نشرته كلية اكسفورد، وله كذلك فتوح افريقية وقد طبع في تونس في جزءين، وغير ذلك.

ولما قدم الرشيد المدينة عام ١٨٠ هـ في الحج سأل وزيره يحيى بن خالد أن يطلب له رجلا عارفا بالمدينة ومشاهدها، فأخبره بالواقدي، وجاء الواقدي الى يحيى، فقال له يحيى: يا شيخ، ان امير المؤمنين اعزه الله يريد ان تصلي عشاء الآخرة في المسجد « النبوي »، وتمضي معنا الى هذه المشاهد، فتوقفنا عليها، فصنع الواقدي ذلك، فمنحه الخليفة هبة سنية، وكان الواقدي تاجر حنطة، فخسر في تجارته مائة الف، وركبته الديون من كل جانب، فقالت له امرأته ام عبدالله: يا ابا عبدالله، ما قعودك؟ وهذا وزير امير المؤمنين قد عرفك وسألك ان تسير اليه حيث استقرت به الدار، فرحل من المدينة الى بغداد، ولقي يحيى الوزير البرمكي، كما لقي الخليفة الرشيد، وولاه الرشيد القضاء بشرقي بغداد كما ذكر ابن خلكان في ترجمته للواقدي « ٢: ٧٢٤ وفيات الاعيان ».

وفي نكبة البرامكة عام ١٨٧ هـ رجع الواقدي الى المدينة، حيث لقيه تلميذه ابن سعد ولازمه وأخذ عنه، وظل الواقدي في بلده « مدينة رسول الله » حتى عام ٢٠٤ هـ، حيث ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي في بغداد، وظل في هذا المنصب حتى توفي عام ٢٠٧ هـ في دار السلام.

وقد صار كتاب المغازي، وكتاب الطبقات، للواقدي مصدرين وثيقين لكل الكتاب والمؤرخين في سيرة رسول الله، وتناول في «المغازي» جهاد رسول الله وأصحابه في مكة، ثم في المدينة حتى فتح مكة، ثم في الجزيرة العربية كلها، ثم حجة الوداع ووفاة رسول الله.

كان ابن سعد كاتبا للواقدي، حيث عاش في ظله عشرين عاما يكتب عنه، ومن اجل ذلك اطلق عليه لقب «كاتب الواقدي، وممن اطلقه عليه ابن ابي حاتم» ٣٢٧ هـ» والبغدادي (٤٦٣ هـ) صاحب كتاب «تاريخ بغداد»، الذي يروي في كتابه في ترجمته لابن سعد ان احمد بن حنبل (٢٤٠ هـ) كان يوجه في كل جمعة حنبل بن اسحاق الى ابن سعد ياخذ منه جزءين من حديث الواقدي، ينظر فيهما الى الجمعة الاخرى، ثم يردهما ويأخذ غيرهما، وذلك مما قد يدل على اهتمام ابن سعد بالكتابة للواقدي، او بالاستئثار بكتب الواقدي وبكتابتها.

واذا كانت قد وردت في كتاب «الطبقات» لابن سعد ترجمات توفي أصحابها بعد العام الذي توفي فيه ابن سعد، (وهو عام ٢٣٠ هـ) مثل محمد بن بكار «الطبقات ق ٧ جـ ٢ ص ٨٧» الذي توفي (عام ٢٣٨ هـ)، ومثل احمد بن ابراهيم الموصلي «الطبقات ق ٧ جـ ٢ ص ٢٦» الذي توفي (عام ٢٣٦ هـ)، فقد يكون ذلك لان اصحاب هذه الترجمات من المعمرين ممن عاصروا ابن سعد وكتب عنهم، وأضاف الناسخون تاريخ وفاتهم الى الكتاب في احدى مخطوطاته المختلفة.

ولابن سعد كتاب غير «الطبقات الكبرى»، وهو «الطبقات الصغرى» كما ذكر ذلك ابن خلكان الذي يقول عن ابن سعد: وصنف كتابا كبيرا في طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء الى وقته، وله طبقات اخرى صغرى، وكذلك ذكر الذهبي والسخاوي الكتابين، ويذكر صاحب كتاب «كشف الظنون» حاجي خليفة ان ابن سعد الف كتابه «طبقات الصحابة والتابعين» في خمسة عشر مجلدا، ثم انتخبه اصغر من ذلك.

ويذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست» ان ابن سعد الف كتابه في اخبار النبي ﷺ وقد يكون هذا كتابا اخر غير الطبقات و«الطبقات الكبرى» لابن سعد ثمانية أجزاء:

الاول: في السيرة النبوية

الثاني: في المغازي

الثالث: في تراجم البدريين من صحابة رسول الله، ﷺ من الانصار «٢٥٩ ترجمة» والمهاجرين «١٣٤ ترجمة»

والرابع: في تراجم الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار «٩٨ ترجمة» والصحابة الذين اسلموا قبل فتح مكة «١٤٣ ترجمة»

والخامس: في تراجم الطبقة الاولى من اهل المدينة من التابعين «١٤٠ ترجمة»، والطبقة الثانية من اهل المدينة من التابعين كذلك «١٨٤ ترجمة» ومن كانوا من الانصار «٧٣ ترجمة»، ومن كانوا من الموالى «٨٤ ترجمة»، ثم الطبقة الثالثة من اهل المدينة من التابعين «٢٢ ترجمة» اما الطبقتان الرابعة والخامسة من اهل المدينة فقد ضاعت اصولها من الكتاب، ويلي ذلك ذكر تراجم الطبقة السادسة «٤٠ ترجمة» فالطبقة السابعة «٣٤ ترجمة».

وبعد ذلك يذكر ابن سعد تراجم من نزل بمكة من اصحاب رسول الله ﷺ «٥٢ ترجمة»، ثم تراجم الطبقة الاولى من اهل مكة «١١ ترجمة» فالطبقة الثانية «٢٧ ترجمة» فالثالثة «٥١ ترجمة» فالرابعة «٢٣ ترجمة» فالخامسة «١٩ ترجمة».

ثم يذكر تراجم من نزل الطائف من اصحاب رسول الله «٣٤ ترجمة» ثم من كان بالطائف من الفقهاء والمحدثين «٢١ ترجمة».

ويذكر كذلك تراجم من نزل اليمن من الصحابة «٢٧ ترجمة»، ثم من كان باليمن من المحدثين، وهم اربع طبقات، تبلغ ترجماتهم ٣٤ ترجمة.

كما يذكر تراجم من نزل اليمامة من الصحابة «٦ ترجمات»، ومن كان

فيها من الفقهاء والمحدثين (١٣ ترجمة).

كما يذكر تراجم من نزل البحرين من الصحابة «٢٥ ترجمة».

والسادس: في تراجم طبقات الصحابة والتابعين من الكوفيين، وهم تسع طبقات.

والسابع: في تراجم طبقات الصحابة والتابعين من البصريين، وهم طبقات كثيرة، ثم من الخراسانيين، ومن الري والانبار، والشام والجزيرة ومصر، وبيت المقدس «ايلة» وافريقية والاندلس.

والثامن: في تراجم الصحابيات من النساء من المهاجرات ونساء الانصار.

ويضم الكتاب اكثر من ثلاثة الاف ترجمة، وقد صار الكتاب مصدرا وثيقا لكل من كتب في تراجم الصحابة والتابعين، من امثال: ابن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب»، وابن ابي نعيم صاحب كتاب «حلية الاولياء» وابن الاثير (٦٣٠ هـ) صاحب كتاب «اسد الغابة» والذهبي (٧٤٨ هـ) صاحب كتاب «اعلام النبلاء» وابن حجر ((٨٥٢ هـ) صاحب كتاب «الاصابة في تمييز الصحابة» وكتاب «تهذيب التهذيب».

هذا ولا يفوتنا ان نذكر ان صنع ابن سعد في «الطبقات» دفع المؤرخين في عصره الى الكتابة عن علماء الامصار الاسلامية، ثم الى الكتابة عن تاريخ المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، فكتب الازرقي (٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م) كتابا في تاريخ مكة وما جاء فيها من الاثار.

وكذلك فعل الفاكهي (٢٧٢ هـ / ٨٨٩ م) فألف كتابا في اخبار مكة ايضا، ومنه مختارات جمعها وستنفلد المستشرق الالماني، وطبعها في ليبزج عام ١٨٥٩م، وقد تم طبعها اخيرا في بيروت.

كما كتب بعض المؤرخين في تاريخ المدينة ايضا، وكتبوا في تاريخ الطائف، ثم كتب ابن طيفور (٢٨٢ هـ) كتابا في «تاريخ بغداد» وقد وصلنا منه الجزء السادس في تاريخ الخليفة المأمون، وقد طبعه المستشرق

الالماني كيلر عام ١٩٠٨ في ليبسك.

ولم يفت المؤرخين المسلمين القدامى، من امثال عبيد بن شرية الجرهمي الذي عاصر معاوية، وابي مخنف الازدي اول من صنف في اخبار الفتوح والخوارج وايام العرب كما يقول بروكلمان، وكذلك المدائني (٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) والبلاذري (٢٧٩ هـ) ثم الطبري شيخ المؤرخين المسلمين (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م).. لم يفتهم الكتابة عن السيرة والمغازي، والاشارة الى طبقات الرجال، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري معروف.

- ٤ -

وفي «الطبقات الكبرى» لا يتوقف ابن سعد عند حدود الترجمة للاعلام التي يذكرها بل كان فيه كذلك ناقدا يروي ما يرويه، ثم يتبعه ببيان رأيه، من مثل ما رواه من ان رسول الله ﷺ بكى عند قبر امه لما فتح مكة، ثم استدرك على هذه الرواية، فقال: وهذا غلط، وليس قبرها بمكة، وقبرها بالايواء.

ويذكر كذلك ابن سعد رواية عن بعض الرواة ان والد رسول الله ﷺ توفي بعد ان اتى على الرسول ثمانية وعشرون شهرا، ويقال: سبعة اشهر، ثم يعلق على ذلك بقوله: والاثبت انه توفي ورسول الله حمل.

وهكذا نجد ابن سعد يبلغ الذروة في التحقيق العلمي والتاريخي، وفي جمع الروايات وتمحيصها، وكتاب الطبقات ولا ريب موسوعة كبيرة في تراجم صحابة رسول الله، بل في السيرة النبوية الشريفة، بل في التاريخ الاسلامي العام، بل في تاريخ الاسلام كله على مدى قرنين من الزمان، وهو فوق ذلك سجل حافل بالاحاديث النبوية والاحكام الفقهية، وشريعة الاسلام في مختلف شئون الحياة.

وابن سعد يتخير اسلوبه الجزل الممتع تخيرا شديدا.

وقد روى الكتاب عنه ابو محمد الحارث بن محمد بن ابي اسامة التميمي

وهو تلميذ من تلامذة ابن سعد، وممن اخذوا عنه علمهم (١٨٦ - ٢٨٢ هـ)، وكان يشاركه في الاخذ عن ابن سعد، الحسين بن محمد «ابن فهم» (٢١١ - ٢٨٩ هـ)، وقد ذكره الذهبي، وقال عنه: انه اخذ عن ابن سعد طبقاته.

ويذكر صاحب كتاب كشف الظنون ان السيوطي اختصر كتاب طبقات ابن سعد، وسماه: «انجاز الوعد المنتقى من طبقات ابن سعد».

وتنتهي رواية كتاب الطبقات الى الامام العالم الحافظ المحدث شرف الدين الدمياطي (٦٨٠ هـ) وهذا هو المذكور في صدر كتاب «الطبقات الكبرى» ولكن الذهبي يقف عند ابي الحجاج يوسف بن خليل بن عبد الله الدمشقي (٥٥٥ - ٦٤٨ هـ) استاذ شرف الدين الدمياطي.

والكتاب يبدأ بنسب رسول الله ﷺ، ومن ثم فلم يكتب له ابن سعد مقدمة او تصديرا، والا لوقفنا على تفاصيل كثيرة اخرى عن فكرة المؤلف حول كتابه وعنه.

وكانت اولى طبعات الكتاب في ليدن بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٧ باشراف المستشرق سخاو وزملاء له معه، حيث اعتمدوا على خمس مخطوطات، وقد ظهر في ثمانية مجلدات، كل مجلد في جزء ما عدا المجلد الثالث والرابع والسابع فقد وقع كل مجلد منها في جزءين.. ثم طبع الكتاب طبعة ثانية في بيروت بتقديم احسان عباس، وطبعته دار الشعب طبعة اخيرة.

- ٥ -

وفي مقدمة الجزء الثامن من هذا الكتاب، الذي وقفه ابن سعد على تراجم النساء، يذكر ام المؤمنين خديجة، ثم يذكر بنات النبي وعماته وخالاته، وبنات عمومته وخؤولته، وبعد هؤلاء جميعا يذكر باقي زوجات رسول الله ﷺ، وعلى رأسهن مرة اخرى ام المؤمنين خديجة، وهنا يفيض في الحديث عنها، ثم يذكر النساء اللواتي تزوج بهن الرسول ولم يدخل بهن، والنساء اللواتي خطبهن

رسول الله ولم يتم زواجه بهن، ومن هؤلاء امرأتان ذكرتا مع بنات عمومته وخؤولته وهما: ام هانىء بنت ابي طالب، وامامة بنت حمزة، وكذلك ليلى بنت الخطيم

وفي بنات رسول الله يذكر ابن سعد: فاطمة وزينب، ورقية، وام كلثوم، كما يذكر امامة بنت زينب، رضي الله عنهن.

وفي عمات الرسول صلوات الله عليه، يذكر ابن سعد: صفية بنت عبد المطلب، واروى، وعاتكة، وام حكيم، وبرة، وأميمة، وهن جميعا بنات عبد المطلب.

وتراجم هؤلاء الصحابيات الجليلات التي وردت في الجزء الثامن من الكتاب تدل على مدى ما بلغته المرأة بالاسلام وفي الاسلام من مكانة عالية، ومنزلة سامية.

يذكر ابن سعد في ترجمته للربيع بنت معوذ من بني النجار اخوال رسول الله ﷺ ان الرسول ذهب الى الربيع في يوم عرسها، فقعد على فراشها. وعندها جاريتان تغنيان بشعر في رثاء شهداء بني النجار في يوم بدر، وفي الشعر جاء عن رسول الله: وفينا نبي يعلم ما يكون في غد، فقال رسول الله للجاريتين: اما هذا فلا تقولاه.

ويذكر ابن سعد في ترجمة ام ورقة بنت عبد الله بن الحارث انها كانت قد جمعت القرآن. وكان الرسول ﷺ قد امرها ان تؤم اهل دارها، وكان لها مؤذن.

وفي ترجمته لام كلثوم اخت ام المؤمنين عائشة يذكر انه في عهد عمر في المسجد النبوي بين القبر والمنبر، كان مجلس المهاجرين: علي وعثمان، والزبير: وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، فاذا اتى عمر شيء من الافاق، مما يتصل بالحروب الضخام، او بشئون الامصار، وشئون المسلمين فيها، أتاهم الخليفة عمر فاخبرهم بذلك، واستشارهم فيه.

وبعد فماذا اقول عن هذا الكتاب الجليل، بل عن هذه الموسوعة النفيسة، «الطبقات الكبرى» وهي معلمة من معالم تاريخ الاسلام والمسلمين.. ورسول الاسلام الكريم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين..

انه لصورة مشرفة لاصول تراثنا الخالد.



اسد الغابة في معرفة الصحابة

لعز الدين بن الاثير
(٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ)

ـ ١ ـ

ثلاثة اخوة كانوا ائمة في العلم، عاشوا في عصر الحروب الصليبية، عصر الدولة الايوبية التي كانت لها السيادة الكاملة على مصر والشام. وفي ظلالها عاش العلماء الثلاثة:

١ ـ أبو الحسن علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين ابن الاثير صاحب كتابنا الذي نتحدث عنه اليوم. وقد نشأ في أسرة علمية لها جلالها ومجدها، ولها الشرف الباذخ في اقليم الموصل، الذي تنتمي هذه الاسرة الى قرية من قراه هي جزيرة ابن عمر يوسف الثقفي امير العراقين. وكان احد المؤرخين المسلمين الاعلام، فهو مؤلف كتاب « الكامل » في التاريخ.

٢ ـ مجد الدين ابو السعادات المبارك (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ)، وهو مؤلف: « جامع الاصول في احاديث الرسول »، وكتاب « النهاية في غريب الحديث والاثر ».. وكان محدثا كبيرا له شهرته في مجال الحديث النبوي الشريف.

٣ ـ ضياء الدين ابو الفتح نصر الله (٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ)، وكان أديبا شاعرا وكاتبا وناقدا، وكتابه « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » مشهور.. الى كتب كثيرة له في الادب والنقد والبلاغة.

ويقول ابن حجر عن صاحب كتاب «أسد الغابة»: «في اوائل القرن السابع جمع عز الدين ابن الاثير كتابا حافلا سماه «اسد الغابة» جمع فيه كثيرا من التصانيف المتقدمة».. «وقد ترجم في هذا الكتاب لسبعة الاف وخمسمائة وخمسة واربعين صحابيا من صحابة رسول الله ﷺ».

وقد عني العلماء المسلمون بالتاريخ لصحابة رسول الله ﷺ عناية كبيرة.. وكان من اشهر من الف في ذلك ابن سعد، وهو محمد ابن سعد بن منيع الزهري (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) وكتابه «الطبقات الكبرى» مشهور ومطبوع.

وممن عني كذلك بضبط اسماء الصحابة والتاريخ لهم:

- خليفة بن خياط (٢٤٠ هـ)

- الامام البخاري محمد بن اسماعيل (١٩٤ - ٢٥٦ هـ)

- الحافظ ابو بكر عبد الله بن ابي داود (٣١٦ هـ)

- ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني (٣٣٦ - ٤٣٠ هـ)، وكتابه «حلية الاولياء» معروف.

- أبو عمر النمري القرطبي ابن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣ هـ) صاحب كتاب «الاستيعاب في اسماء الاصحاب»، ذكر فيه ٤٢٢٥ صحابيا.

- ابو موسى محمد بن عمر الاصبهاني المديني المحدث (٥٠١ - ٥٨١ هـ)، وقد الف ذيلا على كتاب ابن منده (٣٠١ هـ) في تاريخ الصحابة اشتمل على اسماء كثيرين منهم، رضوان الله عليهم اجمعين.

وكثيرون آخرون من العلماء ممن عنوا بتاريخ صحابة رسول الله والتأليف فيه، وممن يضيق هذا المقام عن ذكرهم.

وكتاب ابن الاثير من اجمع ما كتب في هذا الباب. وشهرته العلمية عند العلماء والمحدثين والمؤرخين معروفة..

ويقول ابن الاثير في صدر كتابه: إن رواة سنة رسول الله ﷺ «لم يضبطوا ولا حفظوا على عصرهم، كما فعل بالتابعين وغيرهم الى زماننا هذا».

ويعرف الصحابة بأنهم الذين شهدوا رسول الله، وسمعوا كلامه، وشاهدوا احواله، ونقلوا ذلك الى من بعدهم من الرجال والنساء.

ويشير ابن الاثير في المقدمة بصنيع ابن منده، وابي نعيم، وابن عبد البر في هذا الباب.

ويذكر سبب تأليف الكتاب بأنه قرأ ما كتبه إبن منده وأبو نعيم وأبو موسى الأصفهاني وإبن عبد البر، فعزم على أن يجمع بين كتبهم الاربعة، ولكن الأيام لم تسعفه.. ثم يقول: «واتفق أن سافرت إلى البيت المقدس، جعله الله داراً للاسلام أبداً، فاجتمع بي جماعة من أعيان المحدثين، حثوا عزمي على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة، استقصي فيه ما وصل الي من أسمائهم، فثار العزم الاول، وتجدد ما كنت أحدث به نفسي، وشرعت في جمعه والمبادرة اليه.

ويذكر إبن الأثير أنه رتب كتابه على حروف المعجم.

ويعنى بذكر المصادر التي رجع اليها في تخريج الأحاديث التي أوردها في كتابه.

وأول ترجمة صدر بها إبن الأثير كتابه هي ترجمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ثم يرتب تراجمه على حروف الهجاء فتأتي الترجمة للصحابى الجليل، آبى اللحم الغفارى المقتول يوم حنين، ثم تأتي الترجمة للصحابى أبان بن سعيد بن العاص القرشي الأموي وهو صحابي تأخر إسلامه، حيث أسلم في أواخر عام

ستة من الهجرة. وسبب إسلامه ـ كما يذكر ابن الأثير ـ مع ما كان عليه من الشدة على رسول الله والمسلمين أنه خرج في تجارة الى الشام، فلقي راهباً، فسأله عن رسول الله «صلعم» وقال له: إني رجل من قريش، وإن رجلاً منا خرج فينا، يزعم أنه رسول الله، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى، فقال له الراهب: وما اسم صاحبكم؟ فقال له أبان: محمد، فرد عليه الراهب واصفاً له محمداً رسول الله وسنه ونسبه. فقال أبان: هو كما وصفت، فقال الراهب: والله ليظهرن على العرب، ثم ليظهرن على الارض، فإذا جئت من مكة فاقرأ عليه مني السلام. فعاد أبان الى مكة فلما سار رسول الله إلى الحديبية تبعه أبان فأسلم وحسن إسلامه وبعثه رسول الله إلى نجد على رأس سرية من المسلمين، ثم ولاه البحرين بعد العلاء إبن الحضرمي. فلما توفي رسول الله عاد أبان إلى المدينة فأراد أبو بكر أن يرده إلى البحرين، فأبى أبان، وقال: لا أعمل لأحد بعد رسول الله (ﷺ). وقتل أبان وأخوه سعيد يوم اليرموك، في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة، في خلافة عمر، وقيل: بل قتل يوم أجنادين في جمادي الأولى سنة اثنتي عشرة من الهجرة في خلافه أبي بكر وقبل وفاته بقليل. وقيل بل توفي يوم مرج الصفر عند دمشق سنة أربع عشرة من الهجرة، وقيل بل توفي يوم مرج الصفر عند دمشق سنة أربع عشرة من الهجرة، وقيل بل توفي عام تسعة وعشرين. ويؤيد هذا القول الأخير رواية من روى أنه قد أملى مصحف عثمان على زيد بن ثابت بأمر عثمان خليفة المسلمين.

ويترجم في حرف الهمزة لإبراهيم إبن رسول الله (ﷺ)، وأمه مارية القبطية التي أهداها المقوقس لرسول الله هي وأختها سيرين، فوهب رسول الله سيرين لحسان بن ثابت، فولدت عبد الرحمن ابن حسان، وقد ولد ابراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، في مدينة رسول الله (ﷺ)، في العالية وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله، وبشر أبو رافع مولى رسول الله النبي (ﷺ) بميلاده، فوهب له عبداً، وسر الرسول بمولده كثيراً. ثم دفعه إلى إمرأة بالمدينة ترضعه، اسمها أم سيف. وقال الزبير: إن الانصار تنافسوا

فيمن يرضعه، فجاءت أم بردة من بني النجار، فكلمت رسول الله في أن ترضعه، فكانت ترضعه بلبن ابنها في بني مازن بن النجار، وترجع به إلى أمه. وتوفي ابراهيم وهو إبن ثمانية عشر شهراً، كما قال الواقدي، وقيل: توفي عن ستة عشر شهراً وثمانية ايام، وصلى عليه رسول الله، ودفن بالبقيع، وكان ابراهيم في حجر أمه يجود بنفسه، فأخذه رسول الله، فوضعه في حجره، وهو يقول: «يا ابراهيم انا لا نغنى عنك من الله شيئاً»، ثم ذرفت عيناه بالدموع، ثم قال صلى الله عليه وسلم:

يا ابراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وإن آخرنا سيلحق أولنا، لحزّنا عليك حزناً هو أشد من هذا، وأنا بك يا ابراهيم لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب.

ولما توفي ابراهيم اتفق أن الشمس كسفت يومئذ، فقال قوم: إن الشمس انكسفت لموته، فخطبهم رسول الله، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد، ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة.

- ٤ -

وهكذا يستمر إبن الأثير في تراجمه لصحابة رسول الله (ﷺ)، علماً علماً، محققاً، ومدققاً، ومحاوراً، ومناقشاً لمختلف الروايات، ومرجحاً لما يرى ترجيحه، ومخرجاً للاحاديث، ومسنداً لها، وضابطاً للاعلام.

ولا يذكر من الأعلام إلا من لقي رسول الله، وسمع كلامه، وشاهد أحواله.. ويعيب على من ترجموا للصحابة حين يعدون الاحنف بن قيس معهم، وهو لم يلق رسول الله، وكان ظهوره في خلافة عمر، وإن كان عاش في حياة النبي، ولكنه لم يره، ودليل أنه شاهد عصر الرسول أنه لقي عمر في وفد أهل البصرة، وهو رجل من أعيانهم. ويقول إبن الأثير في صدر كتابه عن الأحنف: ولا أعلم لم ذكروه وغيره ممن هذه حاله، فإن كانوا ذكروهم لانهم كانوا موجودين على عهد رسول الله مسلمين، فكان ينبغي أن يدكروا

كل من أسلم في حياة الرسول، ووصل إليهم اسمه « مقدمة الكتاب ».

وأول علم يذكره إبن الأثير في حرف الباء هو « باقوم الرومي »، وكان نجاراً بالمدينة فأسلم، وهو مولى سعيد بن العاص، وهو الذي صنع لرسول الله منبره ثلاث درجات.

ويترجم لبلال بن رباح الحبشي، فيذكر أنه شهد بدراً والمشاهد كلها، وأنه كان من السابقين إلى الإسلام، وممن عذب في الله فصبر على العذاب، وكان يؤذن لرسول الله في حياته سفراً وحلاً، وهو أول من أذن له في الإسلام. وأقام في الشام بعد وفاة رسول الله مجاهداً، ولم يؤذن بعد رسول الله لأحد، فلما دخل عمر الشام أذن له مرة واحدة، ولم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم، ومات بلال (سنة ١٧ هـ أو ١٨ هـ وقيل سنة ٢٠ هـ)، بدمشق.

ويذكر ابن الأثير أن بلالاً قدم من الشام لزيارة مسجد رسول الله « ص »، فأقبل إلى المدينة، فأتى قبر الرسول، فأقبل الحسن والحسين فأخذ يقبلها ويضمهما إلى صدره، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر، فعلا سطح مسجد رسول الله، فارتجت المدينة حين سمعت صوت بلال مؤذن رسول الله.

ويترجم للحسن بن علي بن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (٣ - ٤٩ هـ) وفيه وفي الحسين أخيه قال رسول الله (ﷺ): الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.. وقال فيهما: هما ريحانتاي من الدنيا.

كما يترجم إبن الأثير للحسين بن علي (٤ - ٦١ هـ) سيد الشهداء..

ويترجم لخالد بن الوليد القائد البطل، وصاحب النصر في معركة اليرموك وغيرها من كبريات المعارك في الاسلام، وتوفي خالد بحمص من الشام سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر.

ويخصص آخر الكتاب لتراجم الصحابيات من النساء، ويرتبهن كذلك على حروف المعجم، صحابية إثر صحابية.

- ٥ -

والكتاب بحق موسوعة كبرى في تاريخ الاسلام وإعلامه في عصر رسول الله والخلفاء الراشدين وصدر من بني أمية، ولا يستغنى عنه مؤرخ يريد أن يؤرخ لحياة المسلمين في تلك الحقبة الخالدة من تاريخ الاسلام كما لا يستغني عنه مؤرخ لسيرة رسول الله، ولسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

والكتاب في جودة تحقيقاته، وفي تثبت صاحبه في الأخبار والروايات، وفي كل ما يورده من أنباء وحقائق تاريخية وإسلامية مثل يحتذى، وعمل جليل ينتفع به.

وهو مطبوع عدة طبعات، منها طبعة في إيران، وأخرى في القاهرة في دار الشعب، إلى طبعات كثيرة أخرى.

وهكذا كان لابن الاثير المؤرخ عمل كبير في تاريخه لصحابة رسول الله في هذا الكتاب الخالد، كما كان له عمل كبير في تاريخه لدول الاسلام وملوكه الى عصر الحروب الصليبية حتى عام ٦١٦ هـ، وعاش ابن الأثير المؤرخ، وأدرك طرفاً من غارات التتار على شرقي العالم الإسلامي، ثم مات (عام ٦٣٠ هـ - ١٢٢٣ م) ودفن بالموصل، قبل سقوط بغداد في أيدي التتار وانتهاء الخلافة العباسية بستة وعشرين عاماً، وكان النذير للمسلمين في كتابه الكامل، بما يهدد الاسلام والمسلمين على أيدي التتار، من نكبات لا يتصورها عقل..

وإذا كان ابن الأثير المؤرخ قد انتقل إلى عالم الخلود منذ ٧٦٠ عاماً ميلادياً، فان كتابيه: «أسد الغابة» و«الكامل»، لسان ذكر له في كل مكان منذ وفاته حتى عصرنا، رحمه الله.

صحيح الإمام مسلم

- **الامام مسلم طلب الحديث منذ الصغر وأخذ عن الإمام البخاري وأفاد منه..**
- **بلغت أحاديث صحيح الإمام مسلم ١٢ ألف حديث:**

- ١ -

فرغ المسلمون من جمع القرآن وتدوينه ـ كتابته ـ في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان بن عفّان..

وبدأوا يفكرون في جمع حديث الرسول وتدوينه، والحديث النبوي هو الأصل الثاني، بعد القرآن الكريم، للشريعة الاسلامية، والعمل به واجب، وجوب العمل بالقرآن، وفي كتاب الله عز وجل: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا وَيُزَكّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لم تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾**[1].

وروى الحاكم في المستدرك عن إبن أبي رافع عن أبيه عن رسول الله: «لا الفين احدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من امرئ، مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: ما أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه!!».

---
(١) سورة البقرة آية ١٥١.

وقد فكر الصحابة في تدوين حديث رسول الله، حفظاً له من الضياع، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص إن رسول الله اذن له بأن يكتب كل ما يسمعه منه. وكان ممن عنوا بكتابة الحديث عبد الله بن عباس (ـ ٦٨ هـ)، والمغيرة ابن شعبة (ـ ٥٠ هـ)، وعروة بن الزبير (ـ ٩٣ هـ)، وسعيد بن جبير، وسواهم.

وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بجمع السنة، وكتب الى المدينة والأمصار بذلك. وقد قام أبو بكر بن حزم وشهاب الدين الزهري (ـ ١٢٤ هـ) بجمع ما سمعاه من حديث رسول الله.

ومن أوائل من جمعوا السنة، وألفوا الكتب:

- ابن جريج بمكة (ـ ١٥٠ هـ)
- ابن اسحاق (ـ ١٥١ هـ)
- الإمام مالك (ـ ١٧٩ هـ)، وهو صاحب كتاب «الموطأ».
- الإمام أبو حنيفة (ـ ١٥٠ هـ)
- سفيان الثوري (ـ ١٦١ هـ)
- سعيد بن أبي عروبة (ـ ١٥٦ هـ)
- حماد بن سلمة بالبصرة (ـ ١٧٦ هـ)
- الربيع بن صبيح (ـ ١٩٠ هـ)
- الصنعاني (ـ ٢١١ هـ)
- ابو داود (ـ ٢٠٤ هـ)
- أبو بكر بن أبي شيبة (ـ ٢٣٥ هـ)
- الإمام أحمد بن حنبل (ـ ٢٤٠ هـ)

ويجيء دور شيخ المحدثين الإمام البخاري (ـ ٢٥٦ هـ)، وخليفته الإمام مسلم (ـ ٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ)، وهما أولا من ألف في الصحيح.

والإمام مسلم هو أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، وقد عني منذ صغره بسماع حديث رسول الله، وبالرحلة في طلبه، وأخذ عن البخاري وأفاد منه، وتتلمذ معه على العديد من المحدثين، واتبع مسلم أثار البخاري، واقتفى أثره.

ولما ورد البخاري نيسابور لازمه مسلم وأفاد من علمه، ومن منهجه في تدوين الحديث النبوي.

ثم أخذ مسلم يدون صحيحه في حديث رسول الله، كما صنع البخاري في تدوين صحيحه. ومع ذلك فلم يرو مسلم - عن البخاري في صحيحه إلا القليل.

وتتلمذ على مسلم العديد من المحدثين من مثل: ابن سلمة. وابن خزيمة. وابن صاعد، وابن حميد، وسواهم.

وروى عنه الترمذي في « جامعه » حديثاً واحداً أخرجه في كتاب الصيام، ونصه: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم احصوا هلال شعبان لرمضان.

وكان الترمذي من أقران مسلم في العلم وطلب حديث رسول الله، واشتركا في كثير من شيوخهما.

وكان مسلم موضع ثناء العلماء عليه، قال فيه شيخه الفراء: كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته الا خيراً.

وقال عنه ابن الاخرم المحدّث: إنما اخرجت مدينتنا هذه - نيسابور - من رجال الحديث ثلاثة: مسلم، ومحمد بن يحيى، وابراهيم بن أبي طالب.

وقال عنه إبن الجارودي: كان مسلم من أوعية العلم.

وقال ابن أبي حاتم: كان مسلم ثقة من الحفاظ له معرفة في الحديث.

وقال مسلمة بن قاسم: مسلم ثقة جليل القدر، من الائمة.

وقال أحمد بن سلمة: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلماً في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما.

وقال عنه بندار: المحدثون أربعة: أبو زرعة والبخاري والدارمي ومسلم.

وقال فيه الإمام النووي «٦٣١ - ٦٧٦ هـ»: أجمعوا على جلالته وأمامته وعلو مرتبته وحذقه في هذه الصنعة وتقدمه فيها، وتضلعه منها. وكان مسلم أحد أعلام أئمة هذا الشأن، وكبار المبرزين فيه، وأهل الحفظ والاتقان، والرحالين في طلبه إلى أئمة الأقطار والبلدان. والمعترف له بالتقدم فيه بلا خلاف عند أهل الحذق والمعرفة. والرجوع إلى كتابه. والمعتمد عليه، في كل مكان وزمان.

وعدّه النيسابوري الحافظ أحد أركان الحديث.

- ٣ -

ولمسلم في علم الحديث العديد من الكتب، التي من أشهرها كتابه «الصحيح» وهو من أشهر الكتب في حديث رسول الله، بعد «صحيح البخاري»، رضوان الله عليهما، ومن مؤلفاته أيضاً في الحديث: المسند الكبير، والجامع الكبير، وكتاب طبقات التابعين، وكتاب مشايخ مالك، وكتاب مشايخ النووى، وكتاب مشايخ شعبة.. وغيرها.

ويذكر الإمام مسلم في مقدمة كتابه «الصحيح» سبب تأليفه له، وأن شخصاً رغب في تعرف جملة الاخيار المأثورة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سنن الدين واحكامه، وما كان منها في الثواب والعقاب، وفي الترغيب والترهيب، وسوى ذلك. وسأل الإمام مسلماً أن يلخص ذلك كله في مؤلف، بلا تكرار، فأقدم الإمام مسلم على جمع هذه الآثار. وتدوين تلك الاحاديث، مما صح عن رسول الله، صلوات الله عليه، مما رواه الثقات المعروفون بالصدق والأمانة.

ويوضح منهج مسلم في صحيحه ما قاله في مقدمة الكتاب: واعلم وفقك الله تعالى أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من غيرهم، ألا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه والأمانة في ناقليه، وأن ينقي منها ما كان منها من أهل التهم والمعاندين من أهل البدع.

وقال مسلم: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة، وقال كذلك: ما وضعت في كتابي هذا، أي المسند، إلا بحجة، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة.

ولقد استغرق تأليف «الصحيح» من مسلم خمسة عشر عاماً، قضاها الإمام مسلم في التثبت والتحري والعناية التامة من أجل جمع الحديث الصحيح وترتيبه، يساعده في ذلك كله بعض تلامذته الثقات..

وقد بلغت جملة أحاديث «صحيح الإمام مسلم» اثني عشر ألف حديث.

وبعد أن اكتمل له كتابه «الصحيح»، أخذ يعرضه على ثقات الحفاظ والمحدثين، ويستشيرهم فيه. وممن عرض عليهم كتابه أبو زرعة وغيره.

ولما تيقن الإمام مسلم من صحة منهجه، وسلامة عمله، وارتاحت نفسه لذلك، أخذ يرغب المحدثين وجماهير الرواة والعلماء فيه، ويؤكد أن صحيحه عمدة يعول عليه في معرفة الصحيح من أحاديث رسول الله، وكان يقول كما رواه النووي: لو أن أهل الحديث يكتبون مائتي سنة الحديث، فمدارهم على هذا المسند، يعني كتابه «الصحيح».

وكان في مسلم زهو وفخر بصنيعه، شأن العلماء، الذين يعتزون بما يقدمونه للعلم من جديد، وبما يضيفونه للمعرفة والاسلام من أياد بيض.

وصحيح مسلم في حديث رسول الله بل في المنزلة «صحيح البخاري» وأحاديث هذين الصحيحين هي أصح ما سمع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن أجل ذلك كان هذان الصحيحان هما أصح الكتب رواية بعد كتاب الله عز وجل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يذكر النووي في مقدمة شرحه لصحيح مسلم ما نصه: وأصح مصنف في الحديث بل في العلم مطلقاً، الصحيحان للامامين البخاري ومسلم، فلم يوجد لهما نظير في المؤلفات، وهما باتفاق العلماء أصح الكتب بعد القرآن العزيز، وتلقتهما الأمة بالقبول.

فصحيح مسلم في أعلى درجات الصحيح لا يتقدمه في هذا إلا صحيح البخاري.. وعن أبي علي النيسابوري شيخ الحاكم: ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم..ولعل ذلك من عصبية المواطن لمواطنه، وإلا فصحيح البخاري هو في المنزلة الأولى بإجماع الأمة.

ويقول الحافظ بن حجر في صحيح مسلم: حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط، لم يحصل لأحد مثله، بحيث أن بعض الناس كان يفضله عن صحيح البخاري وذلك لما اختصر به من جمع الطرق، وجودة السياق، والمحافظة على أداء الألفاظ من غير تقطيع ولا رواية بمعنى، وقد نسج على منواله خلق من النيسابوريين فلم يبلغوا شأوه.

ويقول النووي في مقدمة شرحه لصحيح مسلم: ومن حقق نظره في صحيح مسلم، واطلع على ما أودعه في أسانيده، وترتيبه، وحسن سياقه، وبديع طريقته، من نفائس التحقيق، وأنواع الورع والاحتياط والتحري في الرواية، وتلخيص الطرق واختصارها، وضبط متفرقها، وكثرة إطلاعه، واتساع روايته، وغير ذلك مما فيه من المحاسن واللطائف: علم أنه إمام لا يلحقه أحد ممن بعد عصره، وقل من يساويه، بل يدانيه، من أهل وقته ودهره.

وفي مقدمة الصحيح يذكر الإمام مسلم سبب تأليفه لصحيحه، وأنه قد

زاده رغبة في تأليفه ما رآه من قيام بعض العلماء بجمع الحديث دون تمييز بين صحيح وضعيف. وبيّن أنه لا يصير إلى التكرار في ذكر الحديث الا لحاجة من زيادة معنى في متن، أو فائدة في الاسناد، وأنه يوجه اهتمامه إلى ذكر رواية أهل الضبط والإتقان، ثم يتبعها برواية من هم أقل من أولئك ممن يشملهم الصدق والعلم.

- ٥ -

و«الجامع الصحيح» لمسلم روعي في جمعه أن تكون كل مجموعة من الاحاديث، متعلقة بموضوع واحد، على حدة، وإن كان مسلم لم يضع لها عناوين وأبواباً كما صنع البخاري في صحيحه.

وأحاديث مسلم اثنا عشر ألفاً كما ذكرنا من قبل وهو عن إبن سلمة، وذكر النووي أن جلة أحاديث مسلم نحو أربعة آلاف باسقاط المكرر، وقد عد أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، وذكر أنها بدون المكرر ٣٠٣٣ حديثاً. والقاعدة التي حرص مسلم على العمل بها في جميع أحاديث صحيحه هي أن يكون الحديث متصل الأسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله إلى آخره، سالماً من الشذوذ والعلة، على ما ذكر النووي عن إبن الصلاح.

وأشهر شروح صحيح الإمام مسلم هو شرح الإمام النووي، وأشهر طبعاته هي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي في أربعة مجلدات، والمجلد الخامس هو فهارس مستوفاة صنعها لهذا الكتاب.

ولا ننكر فضل كتب السنة الأخرى من مثل: الموطأ للامام مالك، وصحيح إبن خزيمة، وصحيح إبن حبان، والمستدرك للحاكم، والجامع للترمذي، وسنن أبي داود، والنسائي، وإبن ماجة، والدارمي، والدارقطني، والبيهقي، وسواهما.

ويقول الإمام مسلم: ليس كل شيء صحيح عندي وضعته هنا ـ أي في كتابه «الجامع الصحيح» ـ إنما وضعت هنا ما أجمعوا عليه. وهذا يذكرنا

بقول البخاري: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر.

فقد قصد هذان الإمامان الجليلان جمع أحاديث من الصحيح، لا أنهما حصرا جميع الصحيح في كتابيهما. وكان البخاري يقول: «أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف جلة أخرى».. أي من غير الصحيح، مع أن جلة ما في صحيحه من الاحاديث المسندة إلى رسول الله ـ ص ـ لا تبلغ عشرة آلاف حديث.

وأعلى درجات الصحة ما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم، ويليه ما انفرد به أحدهما دون الآخر. وعندما يقول علماء الحديث في حديث أنه متفق عليه، يعنون بذلك إتفاق البخاري ومسلم وحدهما، يقول ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»: ما اتفق فيه البخاري ومسلم هو الذي يقول فيه أهل الحديث كثيراً: «صحيح متفق عليه»، يطلقون ذلك ويعنون به اتفاق البخاري ومسلم. لا إتفاق الامة عليه، لكن اتفاق الأمة عليه لازم لذلك وحاصل معه، لاتفاق الامة على تلقي ما اتفقا عليه بالقبول. ولمحمد فؤاد عبد الباقي كتاب: «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، وقد بلغت أحاديثه ١٩٠٦ أحاديث، وهو في ثلاثة مجلدات، وقد فرغ من تأليفه عام ١٩٦٧، ورتبه ترتيب «صحيح مسلم».

ولمسلم ترجمات في كتاب: «تاريخ بغداد» للبغدادي، و«طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، و«وفيات الاعيان» لابن خلكان، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر، وفي «المنهج الاحمد» للعليمي، و«شذرات الذهب» لابن العماد، و«التاج المكلل» لصديق حسن خان، وسواها، ومسلم وصحيحه جديران بكل اعتزاز وتقدير.

تفسير الكشّاف

للزمخشري

- ١ -

«الكشّاف عن حقائق التنزيل».. من أشهر كتب التفسير لكتاب الله العزيز، وهو مطبوع في أربعة أجزاء، ويعد عمدة المفسرين، وأهم الأصول المشهورة من تفاسير القرآن الحكيم.. ومؤلفه هو الإمام جار الله الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ: ١٠٧٥ - ١١٤٤ م).

وقد بدأ جار الله في تأليفه عام ٥٢٦ هـ بمكة المكرمة. وانتهى منه في عامين، فقد وجدت نسخة خطية بخط المؤلف وعليها هذه العبارة: وهذه هي نسخة الأصل الاولى وهي أم الكشاف الحرمية - اي نسبة إلى الحرم الشريف - المباركة، فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة، في جناح داره السليمانية، التي على باب أجياد، الموسومة بمدرسة العلامة، صحوة يوم الأثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر من عام ٥٢٨ هـ[١].

وفي مقدمة الكشّاف يقول: «إنه فسر لبعض إخوانه آية، فملكهم الإعجاب، فاقترحوا عليه كتابة تفسير لكتاب الله[٢]، فأخذ في إجابة طلبهم وكتابة تفسير لمعاني كتاب الله ولبلاغته، وكان هذا خلال رحلته الثانية إلى البلد الحرام، ومجاورته للحرم الشريف، ومن أجل هذه المجاورة لقب بجار

(١) ٣ - ٣٧١ الكشاف ط الحلبي بالقاهرة عام ١٩٥١.
(٢) ١٥ - ١ الكشاف.

الله، وقد حشا تفسيره بأصول مذهبه الاعتزالي، وقد أخذ هذه النزعة من أستاذه أبي سعد الزبدي.

وكان الزمخشري يستجيد عمله في تفسيره الذي صار نموذجاً لمقدرته العلمية.. وموهبته الفكرية.

- ٢ -

وينتسب الإمام جار الله الى زمخشر من أعمال خوارزم، وكانت خوارزم ذات ثراء كبير، وحضارة، وقد فتحها قتيبة بن مسلم في عهد الدولة الأموية، فدخلت في الاسلام، وانتشرت فيها اللغة العربية، وزمخشر قرية تقع على أربعة أميال من خوارزم، وتعد ضاحية من ضواحيها، وحفظ فيها القرآن الكريم.

وتلقى جار الله تعليمه في خوارزم وبخارى، حيث درس اللغة وعلومها والدين وعلومه من فقه وتفسير وحديث وتوحيد، وغير ذلك. ووفد على نيسابور وهي يومئذ عاصمة من عواصم العلم والثقافة الاسلامية، ثم ذهب إلى خراسان، وأصفهان وهي مقر السلطان السلجوقي إبن أبي الفتح ملكشاه، ورحل إلى مرو.

وذهب الزمخشري إلى مصر وهي في ظلال الحكم الفاطمي، ومجالس العلم ومعاهده ومدارسه بها مزدهرة. وفي عام ٥٠٢ هـ رحل إلى مكة المكرمة، مجاوراً بيت الله الحرام، ومن أجل ذلك لقب بجار الله، واتصل بأميرها الشريف الحسنى العلوي علي بن حمزة بن وهاس، ولقي الكثير من عطفه ورعايته. ومن أجل ذلك، نوه به في مقدمة تفسيره.

وألف في مكة المكرمة أنئذ مقاماته الخمسين عام ٥١٢ هـ، وكتابه «المفصل» في النحو عام ٥١٥ هو كتابه «الفائق» في غريب الحديث عام ٥١٦ هـ ورحل الى وطنه خوارزم عام ٥١٦ هـ ليقضي هناك عامين من عمره، ثم عاد إلى مكة المكرمة، وكانت أغلب تصانيفه فيها بين زمزم والمقام، مثل كتابه الكشاف، والمستقصي في أمثال العرب، وأطواق الذهب،

وربيع الأبرار، وأساس البلاغة. ثم عاد عام ٥٣٣ هـ إلى وطنه حيث وافته المنية (عام ٥٣٨ هـ - ١١٤٤ م).

- ٣ -

«والكشاف» تغلب عليه روح التفسير البلاغي لكتاب الله، حيث كان جار الله يقصد بيان إعجاز القرآن الكريم، ويرى أن هذا الاعجاز إنما هو في نظمه وأسلوبه وصياغته، ومن ثم شرح أسرار بلاغة أسلوب كتاب الله، وأفاض في بيان ما احتوى عليه من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية وغير ذلك.

كما تغلب على «الكشاف» نزعة الاعتزال التي هاجه بسببها القاضي عياض صاحب كتاب «أزهار الرياض».

وكان الزمخشري نابغة في فهم أسرار البيان وبلاغته، متبحراً في كنوز البلاغة النبوية، حتى قال بعض معاصريه: إن من يريد أن يظفر باعجاز القرآن لا بد له ان يقرأ هذا التفسير، الذي يوضح ثقافة الزمخشري العميقة الواسعة، وشخصيته الباسمة المتفتحة الممتلئة بحب الحياة، ففيه صورة الزمخشري الفقيه والاصولي والمتكلم والمتحدث واللغوي والأديب المرهف الحس المتذوق لبلاغة النصوص القرآنية من شتى جوانبها.

ويفيض الزمخشري في شرح إعراب الآيات القرآنية، ووجوه القراءات فيها، وأسباب نزولها وأسرار بلاغتها. ويرجع الى كتب الأدب والتاريخ. والتفسير فيأخذ عنها، ومن التفاسير التي رجع اليها: تفسير الطبري، والزجاج، والرماني.

وقد ظهرت قبل الزمخشري طبقات من المفسرين، من بينها:

- طبقة الصحابة، كعلى بن أبي طالب، وإبن عباس، وإبن مسعود، وزيد بن ثابت.

- وطبقة التابعين من أمثال: مجاهد وعكرمة، وطاوس، وإبن أبي رباح، وغيرهم.

ـ وطبقة تابعي التابعين: كالحسن البصري، (ـ ١١٠ هـ)، وقتادة (ـ ١١٧ هـ)، ومالك بن أنس (ـ ١٥٥ هـ) وغيرهم.

ـ ثم طبقة الطبري (٣١٠ هـ)، وتلاميذه.

ويقول إبن خلدون عن «الكشّاف»: إن جار الله الزمخشري وضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن ـ البلاغة ـ بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع ـ يريد المعتزلة ـ عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة.

ولا شك أن «الكشّاف» من بين كتب التفسير، التي ظهرت قبل عصر الزمخشري أو في عصره، يعتبر من الأعمال العلمية الجليلة، التي يبدو فيها روح عالم جليل متمكن متذوق لبلاغة الكلام، ولأسرار إعجازه.

وقد كان كثير الاعتزاز باللغة العربية، كثير الدفاع عنها، حتى ليقول في مقدمة كتابه «المفصل في النحو»: «الله أحمد على أن جعلني في علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز..»

ويقول القفطي عنه! كان يضرب به المثل في علم الأدب واللغة والنحو، لقي الافاضل والاكابر، وصنف التصانيف في التفسير والحديث والنحو وغير ذلك ودخل خراسان، وورد العراق، وما دخل بلداً الا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، واستفادوا منه. وكان علاّمة الادب ونسّابة العرب، وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً، واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم.

وإعجاز القرآن وبلاغة نظمه، وجلال أسلوبه.. كل ذلك يبدو في تفسير الكشاف للامام جار الله الزمخشري واضحاً جلياً.. وما زال هذا التفسير يقرأ حتى اليوم، وكأنه كتاب تفسير عصري كتب اليوم، لان فكر جار الله كان خصباً ومتجدداً ومحيطاً بثقافات واسعة. وقد أثر في الثقافة العربية الاسلامية في عصره وبعد عصره تأثيراً كبيراً امتد حتى اليوم صداه.

وكان القرآن الكريم هو محور الدراسات والثقافات في عصر جار الله، بل هو محور الحركة الفكرية والعقلية خلال العصر العباسي الثاني كله عصر ازدهار الحضارة الاسلامية.

وكان تفسير الزجاج «معاني القرآن» من أهم مصادر الزمخشري في تفسيره.

ونرجو أن يكون لتفسير الكشّاف تحقيق علمي جديد، ليصبح مصدراً أصيلاً من مصادر ثقافتنا العربية الاسلامية، وليكون دفاعه عن بلاغة القرآن وإعجازه مقوماً لعقول الشباب وإفهامهم في كتاب الله ومعانيه.



السمط الثمين

في مناقب أمهات المؤمنين

- ١ -

نحن مع كتاب رائع من كتب التراث الاسلامي الخالد، مع كتاب «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» للامام محب الدي الطبري شيخ الحرم المكي، ومحدث الحجاز في عصره (٩١٦ - ٦٩٤ هـ: ١٢١٩ - ١٢٩٥ م).

كان من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.. تلقى ثقافته الاسلامية في مدينة قوص، وهي من مراكز الثقافة الاسلامية في صعيد مصر في هذا العصر.. وكان من أساتذته الإجلاء فيها: الشيخ مجد الدين القشيري والد شيخ الاسلام الشيخ تقي الدين القشيري.. وغيره من أعلام علماء عصره.

وله العديد من الكتب في الحديث والتاريخ وغيرهما، ومن تآليفه كتاب في فضل مكة، وكتاب المختصر في الحديث.. وكتاب الاحكام، وكتابه الذي نقدمه وهو «السمط الثمين».

طاف بكثير من البلاد الاسلامية، ودعاه الملك المظفر ملك اليمن، وهو أحد ملوك الدولة الرسولية، ليسمع عليه الحديث النبوي، فتوجه اليه من مكة، وأقام عنده مدة، وغلبه الحنين إلى بلد الله الحرام، فكتب في الشوق اليها قصائد بليغة، روى بعضها السبكي في كتابه «طبقات الشافعية» في ترجمته للإمام الطبري، وتوفي عن ثمانية وسبعين عاماً، فلقي ربه راضياً مرضياً.

يقول الطبري في مقدمة كتابه:

هذا مؤلف سميته بالسمط الثمين، جمعت فيه ما ورد في مناقب أمهات المؤمنين.

يتحدث الطبري عن زوجات رسول الله واحدة واحدة، ومناقب كل واحدة منهن. ثم يتحدث في آخر كتابه عن بنات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وكما يقص الإمام الطبري تزوج رسول الله إحدى عشرة امرأة، ماتت منهن اثنتان في حياته الشريفة، وهما: خديجة أم المؤمنين، وزينب الهلالية أم المساكين رضى الله عنهما.. ومات صلوات الله عليه عن تسع من أمهات المؤمنين.. وهذا أمر خص الله عز وجل به نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم.

ولقد قضى رسول الله خمسة وعشرين عاماً من حياته وليس له فيها إلا زوجة واحدة.

وجميع زوجاته ما عدا عائشة كن كلهن أرامل أو مطلقات: فخمس منهن أرامل، مات عنهن أزواجهن المسلمون، وثلاث منهن كن من خصومه وأعدائه من القبائل العربية أو من اليهود.. هذا بينما كان لسليمان النبي مئات النساء.. وكان لداود مائة امرأة كما ذكر القرآن الكريم..

وهكذا كان بعض هذا الزواج تألُيفاً لبعض القبائل العربية لتدخل في دين الله.. وكان بعضه تكريماً لنساء عرفن بالبطولة وعظمة الجهاد في سبيل الدعوة والرسالة، أو لنساء استشهد أزواجهن في حروب الاسلام الأولى، ولهن أبناء، وليس لهن من يقوم بأمور معيشتهن، وكان بعض زوجات رسول الله يعتبرن هذا الزواج وسام شرف لهن، ويهبن نصيبهن من رسول الله لغيرهن..

تقول عائشة: ان سودة جعلت يومها وليلتها من رسول الله لي، فكان رسول الله يقسم لي يومين: يومي ويوم سوده، ولم يتزوج رسول الله بكرا غير عائشة.

ويفيض الإمام الطبري في ذكر عدل رسول الله بين زوجاته، عدلا كان المثل الرفيع في معاملة الازواج لزوجاتهن.

ويروي الطبري عن ابن عمر: إن رسول الله لم يتزوج قبل البعثة غير خديجة، ولا تزوج عليها حتى ماتت في العام الخمسين من ميلاده، صلى الله عليه وسلم، وكان أولاده كلهم من خديجة، ما عدا ابراهيم، فإنه من مارية القبطية. وكان رسول الله يقول فيها:

«آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني اذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمن أولاد النساء».

وأمهات المؤمنين: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة المخزومية، وسودة، وهن قرشيات.

ثم ميمونة الهلالية، وجويرية الخزاعية، وصفية اليهودية وهي من بني النضير.

ومن زوجاته: زينب بنت جحش الأسدية وزينب الهلالية أخت ميمونة.. رضي الله عنهن وأرضاهن.

- ٣ -

وعائشة أم المؤمنين: هي من هي: وتقول رضي الله عنها، ما تزوجني رسول الله (ﷺ) حتى أتاه جبريل بصورتي، فقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وأما سودة، فقد هاجرت الى الحبشة مع زوجها فلما عادا الى مكة توفي زوجها، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأم سلمة مات زوجها شهيداً في العام الرابع من الهجرة، فتزوجها رسول الله عوناً لها على تربية أبنائها.

وأما صفية، فهي بنت حي بن أخطب ملك خيبر غير المتوج، وقد

تزوجها رسول الله بعد غزوة خيبر .

وزينب الهلالية لقبت بأم المساكين إذ كانت صاحبة اليد الطولى في البر والخير ، وماتت في خلافة يزيد بن معاوية عام واحد وستين للهجرة، ولها ثمانون عاماً وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

- ٤ -

وبعد ، فهذا الكتاب من الكتب المتصلة بالسيرة النبوية الشريفة ، والتي تصور لنا بيت رسول الله، وما كان عليه من شرف باذخ، ومجد كريم، وأسوة حسنة ، ودين وخلق رفيعين.

صلى الله عليه وسلم في الأولين
وصلى الله عليه وسلم في الآخرين
والسلام عليكم ورحمة الله.

المحاسن والأضداد

- ١ -

الجاحظ عمرو بن بحر، أبو عثمان (١٥٠ - ٢٥٥ هـ/ ٧٦٧ - ٨٦٨ م) علم من أعلام العرب الخالدين، وامام من أئمة الفكر والأدب والثقافة، وشيخ من شيوخ النقد والبيان وعلوم الدين.

عاش أكثر من قرن من الزمان، وشهد حضارة الاسلام الزاهرة في عصر المنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمتوكل، وعاصر التطورات الروحية والسياسية والاجتماعية، والعقلية والأدبية، التي آلت اليها حياة العرب والمسلمين في ظلال العصر العباسي الأول، ونال من تقدير عصره، وتكريم أمته، ما لم ينله مفكر.

كان إماماً من أئمة المعتزلة، وصاحب مذهب من مذاهبهم سمي (الجاحظية)، وكان كذلك عالماً من أكبر علماء جيله، ومفكراً من أجلّ مفكري عصره، كتب بطريقة علمية مبتكرة في النبات والحيوان وفي الاجتماع والتربية، وفي الطب والكيمياء، وفي الفلك والجغرافيا والتاريخ وعلم النفس، وفي القصة والنقد والبيان والتراجم وغيرها. وكان يقوم مذهبه في البحث العلمي على الشك ويقيم آراءه على التجربة، ويجمع آراء السابقين والمعاصرين، وينقد أرسطو والفلاسفة. فكان بذلك موجهاً للفكر ومعلماً للعقل، ومصدراً أخذ منه فلاسفة العرب، كما أخذ منه فلاسفة الغرب، أمثال بيكون

وديكارت وغيرهما.

وما من أديب، أو عالم في الأدب، من أبناء العروبة، على امتداد الأجيال اليوم، إلا أفاد من الجاحظ، وأخذ عنه. فهو منشئ مدرسة وطريقة فنية في الأدب، وصاحب مذهب في النقد، ومؤسس مدرسة في البلاغة، وشيخ من شيوخ اللغة، وعالم من أعمق علماء القرن الثالث الهجري. وينوه به وبأدبه وتراثه جميع رواد الفكر والمعرفة على مر الحقب.

ألف الجاحظ أكثر من خمسين وثلاثمائة كتاب، في مختلف فروع الثقافة، ضاعت كلها على مرور الأيام إلا القليل النادر منها.. ومما بقي لنا منها: كتاب المحاسن والأضداد، وكتاب الحيوان، وكتاب البخلاء، وكتاب «البيان والتبيين» ورسائل عديدة..

- ٢ -

وكتاب «المحاسن والأضداد» يعد من أصول القصة العربية القديمة، التي نجد صوراً منها في كتب الأدب والتاريخ القديمة، بل وفي كتب التفسير، ولا ننسى كتباً مثل الحيوان والبخلاء والأخبار الطوال، وعيون الأخبار، والعقد الفريد، والأمالي للقالي، والأغاني لابي الفرج، والفرج بعد الشدة، وسواها، والتي عكست لنا مشكلات عصرها الاجتماعية والسياسية، وصورت لنا حياة المجتمع وتقاليده وعاداته. وفي قصص ألف ليلة وليلة وكتاب المكافأة وغيرهما الكثير من الامتاع وروعة التأثير.

و«المحاسن والأضداد» من روائع تراث الجاحظ. وقد جمع فيه ضروباً من الفكر والأدب، مع سمو الاسلوب، وروعة المضمون، وجمال السرد، وسعة المعرفة، وغزارة المادة، وسحر البيان. وتتجلى فيه القدرة على سوق الأخبار والنوادر والقصص وجمع نصوص الأدب، داخل إطار من الفن الانساني الرفيع. ويحسبه أنه ينقلنا من الشيء وضده، في لمحة خاطفة، وبراعة فائقة.

وقد طبع الكتاب طبعات عدة في القاهرة وغيرها، ومنه نسخة مخطوطة في

مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية برقم ٨٦٥ .

وقد وقف الباحثون أمام بعض الاعلام التي وردت في الكتاب، وهي متأخرة عن عصر الجاحظ قليلاً، موقف الشك في تسمية الكتاب إلى أبي عثمان. ومن هذه الاعلام: ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) الذي ورد في الكتاب ذكر شعر له[١]، ومنهم: أحمد بن عبد العزيز ابن أبي دلف الذي توفي في نحو عام ٢٩٨ هـ، وقد ورد ذكر شعر فيه لعاصم ابن محمد الكاتب، نظمه بمناسبة حبس أحمد له[٢]. ومنهم كذلك أبو علي الاسكري المصري[٣]، وهو من جلاس الأمير تميم بن تميم بن المعز الفاطمي، وتميم بن المعز من شعراء مصر المجيدين وقد توفي عام ٣٧٤ هـ، وتوفي ابنه تميم بعد ذلك.

وورد في الكتاب أيضاً تاريخ عام ٢٤٠ هـ، كما ورد فيه كذلك اشارة إلى أحداث تاريخية حدثت عام ٢٩٤ هـ. وفيه تنويه شديد بالحسن بن علي وبلاغته[٤] في فصل « محاسن المفاخرة » مما يصح حمله على روح التشيع، وهي غير معروفة عن الجاحظ وقد يمكن أن نقول: إن هذا التنوية لا يحمل معنى أكثر من الرغبة في ذم الأمويين.

وممن أكد نسبة الكتاب للجاحظ محيي الدين بن عربي في كتابه « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار ».

ويقول محمد كرد علي في كتابه « أمراء البيان »[٥] ان الكتاب كله أو جله من قلم الجاحظ، أو جمعه بعض العلماء من كلامه وكلام غيره. وهذا رأي « بروكلمان » أيضاً، فهو يقول: انه مجموعة ضمت إلى كتاب صحيح النسبة

---

(١) ص ٤٧/١، ٤٨ و١٣١ المحاسن والأضداد - سلسلة كتب ثقافية - العدد ١٠، ١١.
(٢) ٤٦/١ المرجع نفسه.
(٣) راجع ٩٢/٢ المحاسن والأضداد.
(٤) ١٠١/١ - ١٢٠ المرجع نفسه.
(٥) ٤٣٢/٢ أمراء البيان.

للجاحظ قصصاً وأخباراً من كتاب يحمل نفس التسمية للبيهقي، وهو من أصحاب ابن المعتز. كما أضاف إلى القسم الثاني عند النساء والحب والزواج نوادر ساسانية وعربية قديمة ومعاصرة[٦].

ورأيي يتمشى مع هذا الرأي، فكل ما في الكتاب من اضافات متأخرة عن عصر الجاحظ هي من زيادات النساخ، سواء كانت هذه الزيادات من كتاب البيهقي أم من كتاب غيره.

ويؤكد نسبة الكتاب للجاحظ موسوعية الثقافة التي يتضمنها، وهذه الموسوعية الشاملة التي ترجع إلى الأدب العربي، وإلى آداب الفرس والهند واليونان وغيرهم هي روح الجاحظ. فوق أن مدح الشيء وذم ضده مما كتب فيه الجاحظ كثيراً في كتبه.

- ٣ -

و«المحاسن والأضداد» يتضمن نصوصاً أدبية كثيرة، جاهلية واسلامية ومحدثة، ويذكر الجاحظ فيه محاسن كل من الكتابة والمخاطبات والمكاتبات والجواب وحفظ اللسان وكتمان السر، والمشورة والشكر والصدق والعفو، والصبر على الحبس، والمودة، والولاية والصحبة أو الصداقة، والتطير، والوفاء والسخاء والشجاعة، وحب الوطن، وطلب الرزق، والمواعظ، والزهد، والنساء، والتزويج، والغيرة والهدايا، ومحاسن وفاء النساء، ومحاسن الوصائف المغنيات، ومحاسن الفتيات، ومحاسن الموت، في افاضة وجمال وامتاع.

ثم يذكر أضداد أغلب هذه الأشياء.. بقدر كبير من الذوق الرفيع، والاختيار الجميل، والاستطراد البليغ، والاثارة للقارئ، والامتلاك لزمامه، مما هو من خصائص بلاغة الجاحظ، التي عرف بها، وعرفت به.

ويحتوي الكتاب على كثير من روائع الأدب والقصص والأساطير

---

(٦) ١٢٧/٢ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

والفكاهات والنوادر والطرائف وبلاغات العرب، كما يحتوي على قصص ونوادر ساسانية وعربية قديمة ومعاصرة، وعلى قصص هندية على لسان الحيوان، مما يشبه في منحاه «كليلة ودمنة» التي ترجمها ابن المقفع إلى العربية، وذلك كقصة الملك بلاش بن فيروز الفارسي مع ابنة ملك الهند، وهي قصة طويلة، وفيه قصيدة شعرية قصصية لشهاب بن حرقة السعدي الأموي(٧).

ومن طرائف ما ذكره عن رجل من البخلاء، قال: كان إذا وقع الدرهم في يده نقره بأصبعه، ثم يقول له: كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها، الآن استقر بك القرار، واطمأنت بك الدار، ثم يرمي به في صندوقه، فيكون آخر العهد به(٨).

وما ذكره عن عمر من تقديمه الموالي على اشراف قريش(٩)، وكلام ابن القرية للحجاج في تخير الزوجة، وكتاب الحسن بن وهب إلى المتوكل في يوم نيروز.

- ٥ -

ان كتاب «المحاسن والأضداد» ليعد من أصول القصة العربية، وهو تمهيد رائع لنشأة قصص المقامات العربية، على يدي البديع الهمذاني (٣٩٨ هـ) وغيره، بل هو تمهيد كبير لقصص ألف ليلة وليلة العربية التي غزت العالم المتحضر، والتي هي في الأغلب الأعم قصص عربية دون شائبة، وإذا أنكر بعض كتاب الغرب ذلك فإن الرأي العالمي يقر به، فقصص ألف ليلة معروفة في أنحاء الدنيا بأنها قصص عربية، وقد أسهمت في خلق القصة الأوروبية الحديثة ويكفي أن تدرك أن ثلاثة كتاب أوروبيين بنوا مجدهم الأدبي على أساسها: وهم: بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) وشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م) ودون جوان صاحب كتاب «الديوان» الذي يضم مجموعة من تلك

(٧) ١/٨٣ المحاسن والأضداد.
(٨) ١/٧٠ المرجع نفسه.
(٩) ١/١٢١ المرجع نفسه.

القصص مترجمة إلى الاسبانية[10].

و« المحاسن والاضداد » يعطينا المفاتيح لدراسة فن القصة عند الجاحظ من شتى أصولها الفنية. وفضلاً عن ذلك فمادته الاسلوبية اتخذت أساساً لتعليم اللغة، مما ظهر أثره في كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة (ـ ٢٧٦ هـ) وفي كتاب « الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني » (ـ ٣٢١ هـ)..

وإن شئت فاقرأ مثلاً قول الجاحظ في المحاسن والأضداد: وفي الدعاء للمسافر (تقول): بأيمن طائر، وأسعد طائر، ولا كبا بك مركب، ولا تعذر عليك مطلب، سهل الله لك السير، وأنالك القصد، وطوي لك البعد بمسرة الظفر، على الطائر الميمون والكوكب السعد، كان الله لك في سفرك، بصرك الله محلك، وهداك رحلك، ولا زلت آمناً مقيماً وظاعناً، بأسعد جد، وأحمد عاقبة، أشخص مصحوباً بالسلامة والكلاءة، آيبا بالنجح[11] الخ.

وفي الكتاب الكثير من المجالس الأدبية الرائعة[12]، والحوار الأدبي البليغ، والنصوص الشعرية والنثرية المأثورة، التي تداولت ولا يزال يتداول بعضها على ألسنة الأدباء والكتاب والخطباء والبلغاء والمتحاورين والمتناظرين.

ثم إن الكتاب يعد أساساً لنشأة مجموعة من الكتب سميت باسم المحاسن والأضداد حيناً، وباسم المحاسن والمساوئ حيناً آخر، ومنها كتاب المحاسن للبيهقي الذي كان من أصدقاء ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر، واعتمد في كتابه على الجاحظ وكتابه[13].

وفضلاً عن ذلك فان مادة الكتاب استغلت في كتب للتربية والوعظ والحكمة ألفت في عصور كثيرة من تاريخنا الثقافي، ومنها مثلاً كتاب « أدب

---

(١٠) ١١٦ و١١٧ القصة العربية القديمة ـ محمد مفيد الشوباشي ـ سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠٦.

(١١) ٩٤/١ المحاسن والأضداد.

(١٢) راجع مثلاً: ٤ : ٢/٦ في مجلس أدبي لأبي نواس مع طبقته من الشعراء.

(١٣) ١٣٥/٣ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

الدنيا والدين » للامام الماوردي الذي ألفه على نمط قريب من نمط الجاحظ في كتابه « المحاسن والأضداد ».

بل ان مادة الكتاب قد أفاد منها جميع الكتاب والمؤلفين في علم السياسة بدءاً من ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » إلى الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » والفخري والطرطوشي في كتبهما في السياسة وتدبير الملك.

كما أن كثيراً من نصوص الكتاب قد استغلت في كتب الأمالي المعروفة في الأدب العربي، ككتاب الأمالي للقالي القرطبي (ـ ٣٥٦ هـ)، وكتاب أمالي المرتضى، وكتاب أمالي ابن الشجري، وغير ذلك.

وفي الكتاب مادة واسعة للأمثال العربية وأصلها وتاريخ بعض استعمالاتها مما كان مادة علمية سار على ضوئها المؤلفون في الأمثال: مثل الميداني مؤلف كتاب (الأمثال) وهو كتاب مشهور.

وعلى الجملة فان كتاب « المحاسن والأضداد » لأبي عثمان الجاحظ من أمتع المؤلفات الجاحظية، ومن ألطف الكتب العربية التراثية. وأكثرها امتاعاً وفائدة، وهو مادة أدبية شيقة وله أهمية في دراسة تراثنا الأدبي القديم، وفي الافادة منه في معرفة النشأة الأولى للمؤلفات العربية في فنون الأدب.



تهذيب الحيوان

لأبي عثمان الجاحظ

- ١ -

الجاحظ هذا الرائد الكبير للفكر العربي، وهذا الأديب الخالد في عصر ازدهار الحضارة الاسلامية وهذا القلم البليغ الذي عاش ابداعه طول العصور نموذجاً رفيعاً يحتذيه كل الكتاب والمتأدبين.. من واجبنا القومي والفكري والأدبي ان نعنى بتراثه وان نوليه حظاً من الخدمة الصادقة الدءوب.

وليس في جيلنا ولا في الأجيال السالفة من أولى تراث الجاحظ كل وقته وعلمه وعمله وأدبه مثل الاستاذ شيخ المحققين في عصرنا عبد السلام هارون الذي نذكر له بالحمد تحقيقه لكتابي الجاحظ الخالدين «البيان والتبيين» و«الحيوان» وتحقيقه لرسائل الجاحظ وغير ذلك من تراث هذا القلم الخالد، في تاريخنا العقلي.

وأخيراً يصدر لنا هذا الاستاذ المحقق الكبير كتاباً نفيساً هو خلاصات من كتاب الحيوان جعل عنوانه «تهذيب الحيوان» والذي صدر في أكثر من ثلاثمائة صفحة فأضاف بذلك رصيداً ثميناً لتراث الجاحظ العظيم.

ولقد كانت عناية الجاحظ بالحيوان والتأليف فيه عناية موفورة فالحيوان رفيق العربي في الحل والسفر يقاسمه حياته ومعيشته أينما كان، والحيوان كذلك ظل دائماً موضع اهتمام العلماء والمفكرين منذ القدم، وأقدم من كتب عنه ارسطو الذي ألف فيه كتاباً مشهوراً عنوانه «الحيوان»، نقله إلى العربية المترجم العربي القديم ابن البطريق وذلك من اليونانية وترجم حديثاً منها إلى الانجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات.

والجاحظ كما يذكر الاستاذ الجليل المحقق في مقدمته لكتابه «تهذيب الحيوان» أول واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان وان سبقه علماء اللغة الذين استقصوا الالفاظ اللغوية التي ينعت بها أعضاء الحيوان في رسائل صغيرة ولكن الجاحظ ينطلق كتابه بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان معتمداً في ذلك على كتاب الله وحديث رسوله الكريم. وعلى التراث العربي الضخم المنقول إلينا عن العرب والمروي عن بدوهم وحضرهم والذي وعاه أبو عثمان الجاحظ في القرنين الثاني والثالث طيلة حياته الطويلة (١٦٠ - ٢٥٥ هـ/ ٧٧٧ - ٨٦٩ م)، ومعتمداً كذلك على كتاب «الحيوان لأرسطو وأرسطو يلقبه الجاحظ في كتابه بصاحب المنطق وقد نقل عنه بعض النصوص التي تعد من القيمة والنفاسة بمكان كبير، وقد وافق أبو عثمان الفيلسوف أرسطو في بعض آرائه وخالفه ونقده في بعض آخر، واعتذر عنه في بعض ثالث بان المترجمين لم يحسنوا ترجمة كتاب أرسطو إلى العربية ولم يتوخوا الدقة والمطابقة، لنجده يقول حيناً: ولعل المترجم قد اساء في الاخبار عنه ويقول حيناً آخر ولعله - أي أرسطو - ان وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ومن افساده معانيه بسوء ترجمته.

ويعتمد ابو عثمان الجاحظ كذلك في كتابه «الحيوان» على آراء معاصريه وبخاصة رجالات المعتزلة وقد كان الجاحظ إماما من كبار ائمتهم.

والكتاب ـ كما يقول المحقق ـ معلمة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي متشعبة الأطراف وقد حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية كما تحدث عن سياسة الأقوام والأفراد وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية.

وفي الكتاب الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية واللغوية والأدبية والنقدية والدينية، وتحدث الجاحظ فيه عن العرب والاعراب وأحوالهم وعلومهم وتراثهم وأفاض القول في آي الكتاب الحكيم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجمع كتاب «الحيوان» للجاحظ صفوة مختارة من حر الشعر العربي ونادره ومن بلاغات العرب وثقافتهم، وقصصهم وتاريخهم، وقيمة الكتاب قيمة كبيرة في تراثنا العربي بل وفي تراث الانسانية قاطبة لأنه دائرة معارف واسعة عن العرب وآدابهم، ويعد حقاً من خوالد التراث الانساني الذي أثرى الفكر والبحث والحضارة الانسانية وهو مطبوع في عدة مجلدات بتحقيق شيخ المحققين عبد السلام هارون.

- ٣ -

وهذا العمل العلمي الكبير الذي يوليه العلماء والمفكرون والمثقفون كل اهتمام وتقدير دفع المحقق إلى تقديم خلاصة موجزة له ليكون فكر الجاحظ وأدبه الممثلان في كتابه في أيدي القراء وبخاصة الشباب منهم في سائر بلاد العروبة والاسلام فكان هذا الكتاب الجديد وهو كتاب اليوم «تهذيب الحيوان».

ومن أجل ذلك اختار محققنا الجليل في تهذيب الكتاب ما كان من النصوص غير مألوف للقراء وما كان من الأدب الذي يجب ان يحفظ ويروى وينشر ويستشهد به وهو الأدب الرفيع النبيل وحذف من «تهذيبه» الكثير من النصوص الحوشية الغريبة، ومن المسائل الفلسفية والكلامية وآثر النصوص القريبة إلى الذوق والطبع وإلى أدب الأديب وإلى ثقافة القارئ الفطين المثقف ووضع فهارس وافية للكتاب وأخرجه في أجمل صورة وأجمل مظهر.

وبين دفتي الكتاب تجد كلام الجاحظ البليغ المأثور عن الكتاب والترجمة وعن الخلاف بين صاحب الديك وصاحب الكلب ويتحدث عن الثعلب والدجاج والخفاش والنمل والسنانير والحمام والأسد والذباب والخفاش والحيات والعصفور والظليم والفأر والعنكبوت والقطا والضباب والأرانب والفيل والجاموس وغيرها.

ويضم التهذيب الكثير من القصص العربي الطريف ومن الفكاهات المرحة الطروب ومن الأمثال والحكم والبلاغات والأشعار والروايات والطرائف التي تستعذب وتنقل وتروى ويستشهد بها.

وغير ذلك من طرائف أبي عثمان الجاحظ وشوارد أدبه ومأثور بلاغته في كتاب «الحيوان»..

وليس هناك أشهى من أدب الجاحظ الذي كانت تتناقله الملوك والخلفاء ويرويه الادباء والعلماء. أنه ليس هناك أشق من تهذيب كتاب ضخم وخاصة إذا ما كان هذا الكتاب لأديب كبير ولمفكر في حجم الجاحظ فهنا تضخم المشقة ويصعب الاختيار.

ولكن المحقق وهو من هو فقه بالعربية ومعرفة بأصولها ومصادرها وتراثها وبتراث الجاحظ خاصة من بين تراث العربية الكبير قد صعد إلى الغاية ودأب في أداء الفرض ونجح في القصد ووفق في الاختيار توفيقاً ما بعده من توفيق مما تشهد به رائعته الثمينة. «تهذيب الحيوان».

ونقف عند نص من نصوص الكتاب وليكن حديث الجاحظ عن الكركدن هذا الحيوان الضخم المعروف. يذكر الجاحظ هذا الحيوان ويسخر به ويتحدث عنه فيقول:

«إن النبي داود ذكره في الزبور وان صاحب المنطق أرسطو ذكره في كتابه الحيوان وسماه الحمار الهندي فجعل له قرناً واحداً في وسط جبهته ويعرفه أهل الهند كبيرهم وصغيرهم وتزعم الهند ان سائر الحيوان تهابه وترهبه ويرد الجاحظ على أرسطو فيما يزعم من ان ولد الفيل يخرج من بطن

أمه ثابت الاسنان لطول لبثه في بطنها فيقول في استطراد ان هذا جائز في العقل في ولد الفيل غير منكر لأن جماعة نساء معروفات الاباء والأبناء قد ولدن أبناءهن ولهم أسنان ثابتة وليس هذا بالمستنكر وان كنت لم أر قط قابلة ـ أي مولدة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الاطباء وقد رووه كما علمت ولكن العجب كل العجب ما ذكروه من اخراج ولد الكركدن رأسه من بطن امه واعتلافه أي أكله العلف ـ ثم ادخاله رأسه بعد الشبع والبطنة.

ومثل هذا الاستقصاء والتحقيق والاحتكام إلى التجربة وإلى العقل في أدب الجاحظ كثير، وان هذه الدقة العلمية التي عرف بها الجاحظ وهذه الحرب التي يعلنها على الأوهام والاساطير وهذا المنهج العلمي الذي يسير عليه كل ذلك لما يروع العلماء والمفكرين ويجعلهم شديدي التعلق بأدب الجاحظ والتذوق لبلاغته.

وبعد فهذا هو كتاب تهذيب الحيوان الذي نهض بعبئه واختياره من أدب كتاب الحيوان لأبي عثمان الجاحظ شيخ جليل من شيوخ العربية والتحقيق العلمي للنصوص فبلغ الغاية واثرى قراء العربية بكتاب جديد يجمع بين بلاغة الجاحظ في أدبه وطرافة الاختيار من مأثورات أبي عثمان في كتابه «الحيوان» فكان البدء والختام أجمل شيء وأطرف شيء وأعون على وصول أدب الجاحظ إلى جيل الشباب اليوم.



الأخبار الطوال

لأبي حنيفة الدّينوري

- ١ -

القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي (١١ من أغسطس ٨١٥ - ١٨ من أغسطس ٩١٢ م)، شهد ميلاد نهضة حضارية جديدة في العالم العربي والاسلامي لم يشهدها «عصر» من قبل، نهضة رفعت لواءها الخلافة العباسية في الشرق، والخلافة الأموية في الأندلس، وكان للخلافة العباسية النفوذ الروحي والسياسي في العالم الاسلامي.

ويعد هذا القرن من أزهى عصور الحضارة العربية الاسلامية، وصفحاته المشرقة من أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والفكري والأدبي للعرب خاصة وللمسلمين عامة.. وقد امتد فيه نفوذ العباسيين من شواطىء المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين، وارتفعت فيه راياتهم في كل الآفاق، تأوي إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون، وتقوم المدارس، وتنشأ الجامعات، وتترجم الثقافات الاجنبية، ويؤدي اعلام الفكر والثقافة واجبهم من أجل خير الانسانية، وتعيش فيه شتى العناصر والاجناس والألوان في ظلال الإخاء والسلام والمحبة.

وفيه تآلفت العواصم الكبرى، في شتى أنحاء الوطن العربي الكبير، مزدهراً بنور المعرفة والثقافة والعلم، بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وفاس، وقرطبة وما اليها.

ونوابغ الفكر العربي واعلامه وعلماؤه، لا يحصى عددهم، الثقافات العالمية كلها تتجمع وتتمثل في الثقافة العربية، وحركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية موصولة، مما أثرى به الفكر العربي ثراء كبيراً، وكان المأمون في بغداد يمثل قمة ازدهار العقل العربي، كان عالماً متضلعاً واسع الثقافة، كثير الاطلاع وكان ينفق بسخاء على حركة ترجمة الثقافات إلى العربية، حتى لقد اعطى وزن ما يترجم ذهباً، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم، ويرغبهم في نقلها. كما كان يخلو إلى الحكماء، ويأنس بمحاضراتهم، ويأمر ولاته بان يبعثوا له بالكتب التي تقع في أيديهم، وجعل من شروط الصلح بينه وبين بيزنطة ان يرسلوا إليه مجموعة من الكتب النادرة، واستدعى المهندس البيزنطي «ليد» إلى بغداد، ولكن امبراطور بيزنطة تيوفيل لم يأذن له بالسفر، فبعث المأمون إلى الامبراطور يطلب منه السماح له بالسفر إلى بغداد ولكن الأمبراطور أقام العراقيل امامه. وكان السلام بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية ضرورياً للعالم كله، وكتب نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يقول: «ان أعظم قوى العالم أجمع: قوة العرب. وقوة الروم، فهما تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء، ولهذا وحده يجب ان نعيش أخوة».

ولقد حفل هذا القرن باعلام كبار قادوا مسيرة الحضارة العربية إلى طريق القوة والازدهار، ومن رواد هذا الطريق: الجاحظ، وابن قتيبة، وأبو حنيفة الدينوري صاحب كتاب «الأخبار الطوال» الذي نقدمه اليوم في هذه الدراسة الموجزة.

مثّل الجاحظ العقل العربي الحضاري في تألقه وسطوعه واحاطته بشتى المعارف والثقافات. من حيث مثّل ابن قتيبة الفكر الاسلامي في شموخه وجلاله واتساعه وتجدده تمثيلاً كاملاً. وأحاط أبو حنيفة الدينوري بكثير من الثقافات الأدبية والدينية والعلمية احاطة تامة تقصر عن مداها كل ثقافات علماء عصره. حتى لقد عده أبو حيان التوحيدي احد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم، ما

بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم: الجاحظ، وأبو حنيفة، وأبو زيد البلخي، ووصفه كذلك بانه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، وله في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم.

وكان أبو حنيفة يقرن بالجاحظ في فصاحته ويختلف الأدباء فيهما: ايهما أبلـغ، فينتهـون إلى أبي سعيـد السيرافي «٢٦٧ هـ»، فيحكمـونـه في تلـك القضية، فيقول: أبو عثمان «الجاحظ» أكثر حلاوة، وأبو حنيفة أكثر ندارة، ومعاني أبي عثمان لائطة - عالقة - بالنفس، سهلة في السمع. ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب، كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء.

- ٢ -

وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري العالم المشهور، والأديب النحوي اللغوي الراوية والمؤرخ البارع في مجال التاريخ، والمهندس المنجم النباتي.. حتى لقد قال عنه ياقوت في معجم الأدباء «١: ١٢٤» «كان نحوياً، لغوياً، مهندساً، منجماً، حاسباً، راوية، ثقة فيما يرويه ويحكيه» وترجمت له دائرة المعارف الاسلامية، وياقوت في «معجم الادباء»، والسيوطي في «بغية الوعاء» والبغدادي في «خزانة الأدب»، وأحمد أمين في «ضحى الاسلام».

كان ميلاده في أوائل القرن الثالث الهجري، في عصر المأمون، في دينور، وتلقى ثقافته الأولى في دينور، ثم رحل إلى الكوفة، وأخذ فيها النحو على ابن السكيت.. وتلقى ثقافته العلمية على أيدي اعلام الأساتذة في كل مكان رحل اليه. من بغداد والبصرة واصفهان وغيرهما. وفي عام ٢٣٥ هـ - ٨٥٠ م كان في اصفهان، يرصد الكواكب، ويسجل نتائج رصده.

وكانت ثقافة ابي حنيفة واسعة في مختلف العلوم. وكان تمكنه من الثقافة اليونانية والهندية أوسع منه عند صاحبه الجاحظ وابن قتيبة.

وقد فاقت شهرته بالكتابة في النبات كل شهرة. واخذ عنه علماء عصره ومن بعدهم، ونقل عنه «ابن سيده» في كتابه «المخصص»، وابن البيطار في

مفرداته، ولم يقتصر على النباتات العربية وحدها، بل ألمّ بما رآه من نباتات في مختلف الاصقاع، وألمّ بما كتب عنه في العربية وغيرها.

- ٣ -

وكتاب «الأخبار الطوال» كما يقول ابو حنيفة عنه: «فيه ذكر ملوك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد بن شهريار بن مسرى ابرويز وذكر من ملك من ملوك قحطان، وملوك الروم، وملوك الترك، وذكر الائمة والخلفاء والحروب التي كانت مثل يوم القادسية، وفتوح العراق، وانصرام دولة العجم، وحروب الجمل وصفين ويوم النهروان ومقتل الحسن، وفتنة ابن الزبير، وذكر خلافة عبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز، إلى انقضاء ملك بني امية، وخبر الدولة العباسية، وقصة أبي مسلم، إلى بنائه مدينة بغداد وأيام الخلفاء من بعده إلى انقضاء امر محمد الأمين، وخبر المأمون إلى آخر أيام المعتصم وخبر بابك وحروبه وأيامه، مختصراً من السير، مقتصراً على الاقتصاد..»

وفي الكتاب الكثير من المعلومات عن علاقة العرب بالفرس مما لا يوجد في مصادر اخرى.

والقسم الفارسي في الكتاب خصب غاية الخصوبة، وكذلك القسم الأموي، بما نشبت فيه من وقائع، وما قام من احداث وما اضطرب فيه من مشكلات سياسية ومذهبية.

ويروح المؤرخ الثقة الأمين يروي أبو حنيفة الكثير من قصص التاريخ في كتابه، موجزاً ـ ومثيراً، وممتعاً، ومؤثراً في الوقت نفسه.

يقول أبو حنيفة في خلافة الرشيد:

وفي ذلك العام ـ العام السبعين بعد المائة ـ استخلف هارون الرشيد، وحج وانصرف على المدينة، فوضع لأهلها العطاء ـ واجزل لهم، فأقبل إلى العراق فوافى الكوفة، وعقد لابن العباس الطوسي على خراسان، وفي سنة أربع

وسبعين ومائة وقعت العصبية بأرض الشام بين المضرية واليمانية، فتحاربوا، حتى قتل بين الفريقين بشر كثير. وحج الرشيد في ذلك العام بالناس ومعه ابناه محمد وعبد الله، وكتب بينهما كتاباً بولاية العهد لمحمد، ومن بعـده لعبـد الله المأمون، وعلق الكتاب في جوف الكعبة، ثم انصرف إلى مدينة السلام، قال الكسائي: ولّاني الرشيد تأديب محمد وعبد الله، فكنت أشدد عليهما في الأدب، وآخذهما به أخذاً شديداً، وبخاصة محمداً. فاتتني ذات يوم خالصة، جارية أم جسار، فقالت: يا كسائي إن السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول لك: حاجتي إليك ان ترفق بابني محمد، فانه ثمرة فؤادي، وقرة عيني، وأنا أرق عليه رقة شديدة، فقلت لخالصة: ان محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في بابه، فقالت خالصة: ان لرقة السيدة سبباً انا مخبرتك به، انها في الليلة التي ولدته فيها أريت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه، فاكتنفته عن يمينه وشماله ومن أمامه وورائه، فقالت التي بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الأمر، كثير الوزر، شديد الغدر. وقالت التي من ورائه: ملك قصاف، مبذر، متلاف، قليل الانصاف، كثير الاسراف، وقالت التي عن يمينه: ملك ضخم، قليل الحلم، كثير الاثم، قطوع للرحم. وقالت التي عن يساره: ملك غدار، كثير الوزر، سريع الدمار. ثم بكت خالصة، وقالت: يا كسائي، وهل يغني الحذر؟

وذكر عن الاصمعي، قال: دخلت على الرشيد، وكنت غبت عنه حولين بالبصرة فأومأ إلي بالجلوس قريباً منه، فجلست قليلاً- ثم نهضت، فأومأ إلي أن أجلس، فجلست حتى خف الناس، ثم قال لي: يا اصمعي، ألا تحب ان ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، اني لاحب ذلك. وما أردت القيام إلا اليهما- لأسلم عليهما. قال الرشيد: تكفى، ثم قال: علي بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول وقال: اجيبا امير المؤمنين، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما، وضربا ببصرهما الأرض، حتى وقفا على أبيهما، فسلما عليه بالخلافة، واومأ إليهما، فدنيا منه، فأجلس محمداً عن يمينه، وعبد الله عن شماله، ثم أمرني بمطارحتهما، فكنت لا ألقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا

أجابا فيه، وأصابا، فقال الرشيد: كيف ترى أدبهما؟ قلت يا امير المؤمنين، ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة ذهنهما، فأطال الله بقاءهما، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما، فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته - دمعته - حتى تحدرت دموعه، ثم اذن لهما، حتى اذا نهضا وخرجا، قال: كيف بكم إذا ظهر تعاديهما، وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الاحياء انهم كانوا موتى، قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجمون عند مولدهما أو شيء آثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما، قالوا: فكان المأمون يقول في خلافته: قد كان الرشيد يسمع جميع ما جرى بيننا، من موسى بن جعفر بن محمد، فلذلك قال ما قال..

قال الاصمعي: وكان الرشيد يحب السمر، ويشتهي احاديث الناس، فكان يرسل إلي إذا نشط لذلك، وجن عليه الليل، فأسامره، فأتيت ذات ليلة، ولم يكن عنده أحد، فسامرته ساعة، ثم أطرق وفكر، ثم قال: يا غلام، علي بالعباسي، يعني الفضل بن الربيع، فحضر، ودخل، فأذن له بالجلوس، فقال يا عباسي، اني عنيت بتولية العهد، ومثبت الأمر في محمد وعبد الله، فما ترى؟ قال الفضل: يا امير المؤمنين، إن هذا أمر خطير عظيم، وللكلام فيه مكان غير هذا، فعلمت أنهما يحبان الخلوة فقمت عنهما، وجلست ناحية من صحن الدار، فما زالا يتناظران، إلى ان أصبحا، واتفق رأيهما على تولية محمد العهد، وتصيير عبد الله من بعده، وقسمة الأموال والجنود بينهما، وان يقيم محمد بدار الخلافة، ويتولى المأمون خراسان. فلما أصبح امر بجمع القواد، فاجتمعوا اليه، فدعاهم إلى بيعة محمد، ومن بعده إلى بيعة المأمون، فأجابوا إلى ذلك وبايعوا.

وينتهي الكتاب بخلافة المعتصم وموته (عام ٢٢٧ هـ/٨٤٢ م).

وبمثل هذا الاسلوب الرفيع الدقيق، البليغ الموثق بالرواية، وبالفكر السياسي العميق، يمضي الكتاب رائعاً ومهيباً وجليلاً إلى نهايته؟.

ويمضي أبو حنيفة الدينوري بعد تأليف الكتاب يضرب في الأرض نحو

الخمسين عاماً، حتى تستأثر به رحمة الله عام ٢٨٢ هـ، على أرجح الآراء في تاريخ وفاته.

وقد كان أبو حنيفة مثلاً رائعاً للريادة العلمية في عصره، بعد وفاة الجاحظ وكان في علمه الرياضي فريداً ليس له نظير من علماء عصره، ويدل على ذلك تآليفه في الفلك والحساب، والجبر والمقابلة، والقبلة، والزوال والكسوف، والبحث في حساب الهند، وغيرهما. كان أبو حنيفة مثلاً رائعاً كذلك لعصر امتزاج الثقافات، واتساع الافق العلمي أمام الباحثين، وعصر النهضة العلمية والأدبية التي شهدها القرن الثالث الهجري، وعاش فيها أجيال العلماء والأدباء والباحثين.

ترك ثروة علمية كبيرة، ضاعت من بين أيدينا، وبقي منها «الأخبار الطوال» هذا الكتاب التاريخي الفريد، الذي ينم عن ثقافة مؤرخ عظيم الفهم لاحداث التاريخ ووقائعه.. ومن كتب أبي حنيفة: كتاب الأنواء، وكتاب في الفصاحة، وكتاب في النبات، وكتاب في الوصايا، وكتاب في التفسير، وآخر بعنوان جواهر العلم، وكتاب إصلاح المنطق، وهو امتداد لكتاب استاذه ابن السكيت «صلاح المنطق» او شرح عليه، وكتاب في الجبر والمقابلة، وكتاب في لحن العامة.

وبحق كان أبو حنيفة من أفذاذ العلماء، الذين جمعوا بين بلاغة العرب، وحكم الفلاسفة.. وتركوا أثراً خالداً باقياً على وجه الزمان.



كتاب الآداب

لابن المعتز

- ١ -

كتاب الآداب لابن المعتز من مخطوطات مكتبة المتحف البريطاني.. ضمن مجموع برقم ٢٥٧٥٨ «من الورقة ٧٢ إلى ٨١»، كتبه علي بن أحمد بن محمد عام ٧٥٩.

وقام المستشرق الرومي كراتشكوفسكي «١٩٥٢» بنشره عام ١٩٢٤ في مجلة استشراقية ثم أعيد نشر الكتاب مرة أخرى في المجلد السادس من مجموعة مؤلفات كراتشكوفسكي «من صفحة ٥١ إلى ٨٥» حيث تولى اصدارها المجمع العلمي الرومي عام ١٩٦٠ في لينينجراد.

وفي مكتبة المجمع العلمي العراقي نسخة مصورة منقولة من مخطوطة المتحف البريطاني.

وقد قام الباحث صبيح رديف العراقي بنشر الكتاب عام ١٩٧٢ وصدرت طبعته في بغداد في أكثر من ثلاثمائة صفحة. وقدم للكتاب بمقدمة طويلة عن ابن المعتز وتراثه.

وختم الكتاب بدراسة عن الدراسات التي كتبت عن ابن المعتز والمراجع التي يمكن الرجوع اليها في دراسته.. والكتاب مطبوع في مطبعة الحوادث ببغداد.

ويعد من روائع تراث ابن المعتز هذا الخليفة العباسي الأديب الشاعر الناقد.

- ٢ -

وأبو العباس عبد الله بن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ - ٩٠٩ م) من أشهر اعلام البيت العباسي، واحد الخلفاء العباسيين، ومن الرواد الأوائل في الأدب والشعر والنقد، وكتاباه: «البديع» و«طبقات الشعراء»، وكتابه الآخر «فصول التماثيل» من روائع التراث العربي الأدبي.

وقد تولى أبوه المعتز عرش الخلافة ثلاث سنوات (٢٥٢ - ٢٥٣ هـ)، وعاش ابنه عبد الله بن المعتز بعده عاكفاً على العلم والادب والشعر، منصرفاً عن السياسة، وتتلمذ على المبرد وثعلب امامي اللغة والأدب في القرن الثالث، وفي عام ٢٩٦ هـ قامت ثورة شعبية نادت بابن المعتز خليفة فقبل، ولكن الثورة لم تنجح وقتل ابن المعتز ومات بعد ان كان خليفة ليوم وليلة فقط.. وجنت عليه السياسة من حيث خلده أدبه وشعره، وظل موضع الدراسة حتى اليوم.

وكان ابن المعتز من كبار الشعراء في القرن الثالث الهجري.. هو وابن الرومي والبحتري طبقة جديدة من طبقات الشعراء المحدثين بعد طبقة أبي تمام.. وديوانه مطبوع، والدراسات عن شعره كثيرة..

وكان ابن المعتز زعيم مدرسة البديعيين في الشعر في عصره، وتشبيهاته مضرب الأمثال في جودة الصفة الشعرية.

وفي الحكمة والأمثال له شعر جيل مأثور يستشهد به.

وكتاب «الآداب» لابن المعتز أثر من آثار كتب الحكمة في الأدب العربي. وبخاصة كتب ابن المقفع: الأدب الكبير، والأدب الصغير، واليتيمة، و«رسائل الصحابة».

وفي الفكر العربي كتب مؤلفة في الآداب ومنها:

- كتاب آداب ابراهيم بن المهدي (٢٢٤ هـ).

- كتاب آداب العتابي الشاعر (٢٢٠ هـ).

- كتاب آداب مسعدة الكاتب (٢٧٧ هـ).

- كتاب أدب الملوك للسرخسي (٢٨٦ هـ) وغيرها، وكل هذه الكتب مفقودة.

ولابن المعتز كتاب على نمط كتابه «الآداب»، وعنوانه «الفصول القصار» وهو مفقود، وقد جمعت طائفة منه في كتابي «رسائل ابن المعتز»، وقد أشار إليه بروكلمان وقال عنه: لعله هو النص الأول لكتاب «الآداب» لابن المعتز وذلك خلاف ما ذهب إليه المحدثون من انه كتاب آخر من كتب ابن المعتز المفقودة.

وقد ألفت على نمط كتاب الآداب لابن المعتز كتب كثيرة منها:

- كتاب الآداب لابن الحرون (٣٩٠ هـ).

- وكتاب الآداب لمحمد العطار (٦٣٠ هـ).

وكتاب لباب الآداب لاسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ).

ويبدو ان لكتاب نهج البلاغة للامام علي ابن أبي طالب أثراً فيما ألف من كتب الآداب في التراث العربي.

ولا شك أن ابن المعتز قد تأثر بثقافات عصره من اسلامية وأجنبية

ويونانية وفارسية وهندية.

وحين يقول ابن المقفع: «للعقول غرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمي العقول وتزكو.. يقول ابن المعتز: العقل غريزة تربيها التجارب».

وحين يقول ابن المقفع كذلك: «العجب آفة العقل» يقول ابن المعتز: «العجب شر آفات العقل».

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٦ هـ).. «الشيب أول مراحل الموت».. ويقول ابن المعتز في كتابه «الآداب»: «الشيب أول مواعيد الفناء».

وهكذا نجد أن من مصادر آداب ابن المعتز التي أخذ عنها حكمه وآدابه: ابن المقفع في كتبه، وابن قتيبة في عيون الاخبار.. ومنها نوادر من كلام الامام علي بن أبي طالب في «نهج البلاغة». وللشهاب الخفاجي (١٠٦٩ هـ) فصول قصار أوردها في كتابه «طراز المجالس» على نمط فصول ابن المعتز القصار التي هي من باب الآداب والحكم.

ومن آداب ابن المعتز (٢٩٦ هـ) طائفة من الاداب وردت بنصها في كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم» للمبشر ابن فاتك (٤٨٠ هـ) وفيها روح الحكمة اليونانية.

ويقول محقق كتاب الآداب، ومما أورده ابن المعتز من الآداب حكم جاءت بنصها في مؤلفات من جاءوا بعد ابن المعتز منسوبة في أغلب الأحيان إلى فلاسفة اليونان، وهذا ما يذهب بنا إلى الميل إلى ان ابن المعتز قد تأثر بما ترجم من اليونانية من كتب، وخاصة كتب الآداب والحكم، وكان يردد ما يختاره منها. ومن كلفه بها ضمها إلى كتاب «الآداب»، مع ما له من أقوال ووسائل «٢٦ و٢٧ من كتاب الآداب».

والآداب بمعنى الحكمة والمثل، كما كان يقصد منها ابن المعتز وغيره، وهي حكم وأمثال كان لها صدى في نفس ابن المعتز.. فردها، ثم أودعها في

كتابه «الآداب» مختارات ومنتخبات مأثورة.

- ٤ -

يقول ابن المعتز في مقدمة كتاب «الآداب»:

- الأدب صورة العقل، فحسن عقلك كيف شئت.

- الموت باب الآخرة.

- اعادة الاعتذار تذكير بالذنب.

- إذا كثر الناعي إليك قام الناعي بك.

- العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم.

- النية أساس العمل.

والحكمة الأخيرة سبق إليها الحديث النبوي المشهور: انما الاعمال بالنيات.

ومن الآداب أيضاً:

- المرض حبس البدن، كما ان الهم حبس الروح.

- الدنيا قصور في صحيفة.

- ما كل من يورق بوعد يثمر.

- نعوذ بالله من ترهات الشبان ونزعات الشيطان.

- أبلغ الكلام ما يؤنس مسمعه.

- أبلغ الكلام ما حسن ايجازه، وقل مجازه، وكثر اعجازه.

وبعد، فكتاب الآداب من أجل كتب التراث، وحكم ابن المعتز في الكتاب صورة عن فهمه لعصره، والتطورات العقلية والأدبية والسياسية والاجتماعية في القرن الثالث الهجري، هذا القرن الذي تلاطمت فيه أمواج الثقافات المختلفة.. وعملت عملها في فكر العصر واتجاهاته.

الامتاع والمؤانسة

- ١ -

الجاحظ الثاني أبو حيان التوحيدي من اعلام القرن الرابع الهجري، ومن رواد الحركة الأدبية فيه وائمتها. عاش حياته بائساً مكدوداً يشكو البؤس والحرمان، وكأنما أدركته حرفة الأدب او صبت عليه هذه الحرفة كلكلها حتى كادت تطحنه طحناً.

يصف حال نفسه في مقدمة كتابه «الاشارات الالهية» الذي حققة وقدم له د. عبد الرحمن بدوي فيقول[١]:

«اما حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها. واما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما، واما سري وعلانيتي فممقوتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق، واما سكوني وحركتي فآفتان محيطتان بي، لأني لا أجد في احدهما حلاوة النجوى، ولا اعرى في الآخر من مرارة الشكوى، واما قراري واضطرابي فقد ارتهنني الاضطراب حتى لم يدع فيّ فضلا للقرار، وغالب ظني اني قد علقت به لأنه لا طمع لي في الفكاك ولا انتظار عندي للانفكاك».

---

(١) ص ١٨ ط القاهرة ١٩٥٠.

ولقد عاش عصره وحياته في شقاء دائم. كان العصر البويهي (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) عصر اضطراب سياسي كبير، شمل العالم الاسلامي كله، وخضعت فيه الخلافة العباسية للملوك البويهيين، الذين استلموا من الخلفاء كل سلطاتهم، وحكموا العالم الاسلامي باسمهم، وبدأت تنشأ الامارات المستقلة، والدويلات المتحررة من نفوذ بغداد والبويهيين، ونشأ عن ذلك ضعف عام شمل جميع أرجاء الخلافة وكثرت الحروب، وعم الفقر، وساد البؤس والحرمان كل مناطق الولايات الاسلامية.. ووجد الأدباء انفسهم اشد طبقات المجتمع خصاصة، وأكثرها فاقة، وأذيعها شكوى ومرارة وألماً، وكان أبو حيان التوحيدي ظاهرة من ظواهر هذا المجتمع العجيب، ووجدنا طبقة من الأدباء تحترف الكدية، واتخذت لنفسها لقب «الساسانيين» وقد صورهم أبو دلف الينبوعي الخزرجي في قصيدته الدالية المشهورة وكذلك البديع الهمذاني في مقاماته، تصويراً واضحاً..

ومع ان التوحيدي عاش قريباً من بلاط الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد فقد هجاهما، وألف فيهما كتاباً سماه «مثالب الوزيرين»، وآثر أن يعيش مع «الغرباء والمحتدين الادنياء الأردياء»[٢].

وكما يقول محقق كتاب «الاشارات الالهية» د. عبد الرحمن بدوي نقلاً عن ياقوت في «معجم الادباء»: «لقد عرف الشقاء الذي لا يستحقه، ولقي الأهوال من الأحياء، بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف في الدنيا. ولكنه حرم من ذلك كله، وزاد من شعوره بالألم انه طلب المجد عند أناس مهنتهم مهنته، أعني حرفة الادب، لكنهم بلغوا مرتبة الوزارة، وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان من مقدمة كتاب «الاشارات الالهية».

وكان صديقه أبو بكر القوسي الفيلسوف مثله، ويقول عنه التوحيدي: كان بحراً عجاجاً وسراجاً وهاجاً، وكان من الضر والفاقة ومقاساة الشدة

---

(٢) جـ ١ ص ٧ الامتاع والمؤانسة ط القاهرة ١٩٢٩.

بمنزلة عظيمة، فهو عظيم القدر عند ذوي الأخطار، منحوس الحظ منهم، وقال له التوحيدي ذات يوم: ما ظننت ان الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ مني، ان قصدت دجلة لاغتسل منها نضب ماؤها، وان خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس[٣].

وكم كان يكرر: «معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال، والصبر على الوخيم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل»، وعاش مترفعاً على الفقر وعلى الناس وعلى السادة في عصره.

ان التوحيدي كان شاهداً على عصره، وعلامة واضحة من علامات بيئته، فهو يعيش حياته غريب الروح والفكر، غريب الدار والوطن لا يستقر به قرار، ولا ينعم بأن يؤويه سكن أو دار، ولكنه غني النفس، غني الفكر، غني الأدب. يشعر بعظمته وبنفسه وبقيمة أدبه وفكره في الحياة، ويقول مثل هذه العبارة الرفيعة: «استشعر العظمة، فانك بهذا الاستشعار تستحق التكرمة»[٤].

وهكذا عاش التوحيدي حياة البائسين، وحياة المفكرين، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، كما يقول عنه د. زكي نجيب محمود ـ تراث الانسانية العدد العاشر من المجلد الأول.

- ٢ -

«الامتاع والمؤانسة» حققه ونشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاثة أجزاء، وقالا عنه: انه مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة، حاضر المؤلف بها الوزير ابا عبد الله العارض في أربعين ليلة.

---

(٣) ي من مقدمة «الاشارات» ـ عن ياقوت في معجم الأدباء ص ١٠ جـ ١٥.

(٤) ص ١٠٤ الاشارات الالهية.

وأقول ان التوحيدي عرض في هذا الكتاب الجليل كل مشكلات الثقافة والفكر والأدب في عصره، في ندوات أدبية كان يعقدها في أمسيات جيلة في دار الوزير أبي عبد الله العارض.

ان الكتاب حديث متصل عن كل التيارات الفكرية والأدبية في عصر التوحيدي، مما كان موضوع سمر ومنادمة وحوار في مجلس هذا الوزير.

وكما ألف بعض الأدباء في هذا العصر في باب السمر أصول كتاب ألف ليلة وليلة، فقد ألف التوحيدي لذلك هذا الكتاب الممتع الرائع، الذي يقص علينا فيه كل ما كان يعنيه من مشكلات الفكر والثقافة والأدب في أدب رفيع من أدب السمر والحوار، في مجلس وزير جليل.

وتشابه «ألف ليلة وليلة» مع كتاب «الامتاع» في أن كلا منهما يتوزع السمر والحديث فيه في ليال متعاقبة ليلة بعد ليلة.

والكتاب موزع على أربعين ليلة، وان كانت الليلة العاشرة والحادية عشرة جعلتا في ليلة واحدة، وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب.

وينتهي الجزء الثالث من الكتاب بالليلة الأربعين وكان الحديث فيها عن أبي تمام والبحتري شاعري القرن الثالث الهجري العظيمين، وعن تباين الأفكار والمذاهب وتخاصمها، وعن بعض الزائغين الذين ذهبوا إلى أن الله عز وجل لم يخلق السباع الضارية ولا الهوام، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام[٥] ويرد عليهم التوحيدي هذا الرأي.

لم ينقل التوحيدي من بعض المتكلمين ببغداد قوله: إذا كان الله عدلاً كريماً، جواداً علياً، رؤوفاً رحيماً، فانه سيصير جميع خلقه إلى جنته.

ثم يقول الوزير للتوحيدي: هات ملحة المجلس، فيقول التوحيدي عن أبي همام: لو كان النخل لا يحمل بعضه إلا الرطب، وبعضه إلا اليسر، وبعضه

---

(٥) ص ١٩٠ جـ ٣ الامتاع.

إلا الخلال، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين، ما كان بذلك بأس، ثم قال: استغفر الله، لو كنت تمنيت بدل نواة التمر زبدة كان أصوب.

ويذكر التوحيدي كذلك بعض المأثورات عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، فيصفها الوزير بفصاحة اللسان، وشجاعة الجنان.

كما يذكر مأثورات أخرى لأدباء متعددين.

وفي آخر الكتاب يخاطب التوحيدي صديقه أبا الوفاء المهندس فيقول:

واما ما قلت لي أيها الشيخ انه ينبغي أن تكتب رسائلك إلى الوزير، حتى أقف على مقاصدك فيها، واستبين براعتك وترتيبك بها، فأنا أفعل ذلك في هذه الورقات.

ثم يلحق بالليلة الأربعين رسالتين كتبهما إلى الوزير.

وفي الرسالة الأولى يتحدث التوحيدي إلى وزيره فيقول:

كنت وصلت إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه، وخدمت دولته وتصرفت من الحديث باذنه في شجونه وفنونه، كل ذلك آملاً في جدوى آخذها، وحظوة أحظى بها، وزلفى أميس معها، فتقبل ذلك كله، ووعد عليه خيراً، ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلي مسروراً، بوجه مسفر، ومحيا طلق، وأمل قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا جناب الوزير ومحضره، فاطمئني راضية مرضية، حصلت من ذلك الوعد والضمان، على بعض فعلات الزمان، ولا عجب في ذلك من الزمان، فهو بمثله مليء. وبقيت محمولاً بيني وبين أذكاره، حيران لا أريش ولا أبري، ثم رفعت ناظري، وسددت خاطري، وفصلت الحساب في وعلي، فوضح العذر المبين، المانع من استزادة المستزيد..

وليس بعد هذا الاسلوب اسلوب أمعن في التهكم، ولا أبلغ في السخرية، منه...

وتمضي الرسالة الثانية كذلك جامعة بين الجد والهزل، والسخرية والتهكم ثم يلحق التوحيدي بهاتين الرسالتين رسالة ثالثة في شكوى البؤس وجه بها إلى أبي الوفاء المهندس الذي كتب له التوحيدي هذا الكتاب، وختم كتابه بها.. في هذه الرسالة يقول التوحيدي لأبي الوفاء الذي قربه إلى الوزير:

خلصني أيها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضر، اشترني بالاحسان، أكفني مؤونة الغداء والعشاء.

ويسترسل في كلامه قائلاً:

إلى متى الكسيرة اليابسة، والقميص المرقع، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون قد والله بح الحلق وتغير الخلق، الله، الله في أمري أجبرني فانني مكسور، أسقني فإنني صد - ظمآن - أغثني فإنني ملهوف، حلني فإنني عاطل، شهرني فإنني غفل. قد أذلني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب مني.. أيها الكريم.. ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إلي في كل شهر من هذا الرزق المقتر، الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهماً مع هذه المؤونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحجبة، والوجوه المقطبة، والنفوس الضيقة، والأخلاق الدنيئة.

ثم يقول في هذه الرسالة: وأنا الجار القديم، والعبد الشاكر، ولكنك مقبل كالمعرض، ومقدم كالمؤخر.

ان التوحيدي يعرض في هذه الكلمات قصته مع الوزير، عرض الساحر البليغ الذي لا يجاري بيانه ببيان.

والوزير العارض الذي وصله أبو الوفاء المهندس به من وزراء الدولة البويهية استوزره - كما يقول أحمد أمين - صمصام الدولة البويهي (عام ٣٧٣ هـ/٩٨٤ م) لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة،وكان له ندوة يجتمع فيها العلماء والمفكرون والأدباء، ومن بينهم: التوحيدي، وابن زرعة الفيلسوف ومسكويه وأبو الوفاء المهندس، وسواهم.

وهذا الوزير هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان.. أما أبو الوفاء (٣٢٨ - ٣٧٦ هـ) فهو من كبار المهندسين في العصر البويهي.

- ٣ -

وكتاب «الامتاع» يحتوي أعظم الوثائق الأدبية والفكرية، التي تمخض عنها القرن الرابع الهجري العظيم، قرن الثقافات الرفيعة والأدب المزدهر، والفلسفة الدائمة.

والكتاب أحد كتب التوحيدي الرائعة، التي تعرف منها: الاشارات الالهية، الهوامل والشوامل الذي حققه أحمد أمين والسيد أحمد صقر: والمقابسات، والصداقة والصديق، والذخائر والبصائر.

في كل ليلة من ليالي «الامتاع والمؤانسة» الأربعين، يجري الحوار والسمر حول موضوع محدد، يعينه ابن سعدان الوزير، وإن كان عقل التوحيدي الواسع الثقافة، المحيط بجوانب شتى من المعرفة، كثيراً ما يسلك سبيل الاستطراد فينتقل من طرفة إلى طرفة، ومن فكرة إلى فكرة، ومن شيء إلى آخر شبيه به، حتى ليتناول موضوعات عدة، ويختتم الليلة غالباً بملحة وداع، أي بطرفة يختتم بها الأمسية الأدبية.

- ٤ -

ان كتاب «الامتاع والمؤانسة» لهو خلاصة رائعة لمشكلات الفكر والثقافة والأدب في القرن الرابع الهجري، وهو زاد رفيع من المعرفة، وكما نجلس في عصرنا الراهن في أنديتنا الأدبية لنتحدث ونتناقش ونتحاور في مختلف مسائل الثقافة، كان أبو حيان التوحيدي الجاحظ الثاني، بأسلوبه البليغ، وبيانه الرفيع، وكلامه العذب، يجلس في مجلس هذا الوزير البويهي الكبير، ليتحدث في مختلف مسائل العلوم والمعرفة والفلسفة حديث الانسان المثقف الداهية، البليغ الأديب، فيملك الاسماع، ويستولي على الألباب، ويثير الدهشة من كل مكان، ويتصل الحوار بينه وبين أعلام عصره في ندوة الوزير، ويحتج كل

لرأيه، وتكون نتيجة ذلك كله ثراء ما بعده من ثراء للفكر وللعقل وللانسان.

رحم الله أبا حيان شيخ المفكرين وشيخ الأدباء، في عصره، والجاحظ الثاني، الذي خلف للعربية زاداً رفيعاً من الثقافة، ما زلنا ننهل من ينابيعه العذاب.

ولاة مصر وقضاتها

للمؤرخ المصري الكبير الكِنْدي

- ١ -

إمام المؤرخين المصريين «أبو عمر محمد بن يوسف» الكندي المصري (٢٨٣ - ٣٥٠ هـ/ ١٧ يناير ٨٩٧ - أكتوبر ٩٦١ م).

وكتابه «ولاة العصر»، وكتابه الآخر «قضاة مصر»، من أهم المؤلفات الأصول عن تاريخ مصر إلى نهاية الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، أي من بعد الفتح الاسلامي لمصر مباشرة عام ١٩ هـ، حتى سنة ٥٣٣ هـ، وقد عاش الكندي بعد ذلك خمسة عشر عاماً، وتوفاه الله إلى رحمته عام ٣٥٠ هـ.

وقد عثر على هذين الكتابين في مخطوطة واحدة بقلم أحد كتاب خزانة بعض ملوك بني أيوب في دمشق عام ٦١٥ هـ، وانتقلت ملكية هذه النسخة إلى القاهرة، إلى ان اشترتها مكتبة المتحف البريطاني، ونشر هذه المخطوطة، روفن جست، بعنوان «كتاب الولاة والقضاة لأبي عمر الكندي» والقسم الأول من المخطوطة عنوانه «كتاب تسمية ولاة مصر»، والقسم الثاني منها عنوانه «كتاب تسمية قضاة مصر».

وللكندي مؤلفات كثيرة منها:

- كتاب الخطط.

- سيرة السري بن الحكم.

- الجند العربي.

وهي كتب مفقودة..

وقد اختار الدكتور ابراهيم العدوي مختارات من كتاب «ولاة مصر وقضاتها»، راجعها الدكتور محمد مصطفى زيادة، ونشرت هذه المختارات في كتاب، طبع في دار المعرفة في أكثر من مائة صفحة، وصدر بمقدمة قصيرة، ثم يجيء القسم الأول وهو مختارات من كتاب «ولاة مصر»، ويشتمل على:

- تاريخ الولاة في عصر الخلفاء الراشدين..

- تاريخ الولاة في عصر الدولة الأموية.

- تاريخ الولاة في عصر الدولة العباسية.

- الدولة الطولونية.

- قيام الدولة الأخشيدية، وجانب من تاريخها حتى عام ٣٣٥ هـ.

أما القسم الثاني فهو مختارات من كتاب «قضاة مصر»، من أول القضاة وهو قيس بن أبي العاص، الذي ولي القضاء إلى ربيع الأول سنة ٢٣ هـ، ثم مات، وكانت ولايته نحواً من ثلاثة أشهر. ويتناول تاريخ القضاة في مصر الاسلامية إلى نحو أواخر القرن الثالث الهجري.

ومن أشهر الولاة على مصر: عمرة بن العاص، وفي عصر دولة بني أمية: عبد العزيز بن مروان، وعبدالله بن عبد الملك مروان، وفي عصر الدولة العباسية: صالح ابن علي العباسي، وابراهيم بن صالح العباسي، والفضل بن

صالح العباسي، وعلي بن سليمان العباسي، والسري بن الحكم (٢٠٠ - ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م)، ثم كانت ولايته الثانية (٢٠١ - ٢٠٥ هـ/ ٨١٧ - ٨٢٠ م)، وغير هؤلاء الولاة، وهم كثر.

ومن أشهر القضاة على مصر:

- قيس بن ابي العاص (٢٣ - ٣٥ هـ).

- عبدالله بن لهيعة الحضرمي (١٥٥ - ١٦٤ هـ).

- الحارث بن مكين (٢٣٧ - ٢٤٥ هـ) وسواهم.

والكتابان من أهم ما وجد من تراث الكندي، ومن أهم الكتب الأولى التي حفظت لنا جانباً كبيراً من تاريخ مصر في القرن الأول والثاني والثالث الهجري.

- ٣ -

والكندي ممن خرجتهم جامعة الفسطاط الاسلامية الخالدة، تلك الجامعة التي جلس فيها الامام الشافعي، وكانت له حلقة فقهية فيها، وتعلم فيها أبو تمام الشاعر العباسي الخالد (- ٢٣١ هـ)، وجلس في حلقاتها أبو الطيب المتنبي أثناء اقامته في مصر في عصر الاخشيديين ووزيرهم الكبير كافور الأخشيدي.

وهو من قبيلة «كندة» من القبائل اليمانية القحطانية، التي هاجر الكثير من أبنائها إلى مصر، ومن فروعها قبيلة «نجيب» ذات التاريخ الحافل في مصر، ومن «نجيب» ظهر مؤرخنا الكندي المصري الذي ولد في (العاشر من ذي الحجة ٢٨٣ هـ/ ١٧ من يناير عام ٨٩٧ م)، ودرس في منزله، ثم على أيدي بعض الشيوخ من أسرته وغيرهم، ثم درس في جامع عمرو أي جامعة الفسطاط الاسلامية، ونبغ في علوم الدين واللغة وفي التاريخ، وألف العديد من المؤلفات التاريخية الرائعة، ومن أشهرها الكتاب أو الكتابان التاريخيان اللذان نعرض لهما في هذه الدراسة، وقد تناول الكندي في الكتابين تاريخ ولاة مصر

وقضاتها منذ الفتح الاسلامي (عام ١٩ هـ حتى عام ٣٣٥ هـ/٩٤٦ م) قبل وفاة الكندي بخمس عشرة سنة.

ويبدو من ذلك ان انتهاء المؤلف من كتابه كان في هذا التاريخ، وهو نهايات العصر الأخشيدي على وجه التقريب وقبيل بدء العصر الفاطمي في مصر الاسلامية بنحو عشرين عاماً. ويعد الكتاب من تراث مصر الخالد، وسجلاً للنظم السياسية والادارية والقضائية في وطننا طيلة ثلاثة قرون كاملة.

- ٤ -

ومن أهم ما دونه الكندي في تاريخه:

ـ فتح عبدالله بن سعد بن أبي سرح والي مصر لدنقلة عام ٣١ هـ.

ـ معركة ذات الصواري البحرية بين سفن مصر والأسطول الروماني البالغ عدد سفنه ألف سفينة في عهد قسطنطين بن هرقل عام ٣٤ هـ، وسميت ذات الصواري لكثرة صواري المراكب المشتركة في هذه المعركة واجتماعها، وكان والي مصر آنذاك هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح (٢٥ ـ ٣٥ هـ/ ٦٤٥ ـ ٦٥٥ م).

ـ ولاية عقبة بن عامر على مصر (٤٤ ـ ٤٧ هـ)، وكان عقبة قارئاً شاعراً، فقيهاً، وهو صحابي جليل، وقد أمره معاوية ان يسير في أسطول بحري لفتح رودس.

ـ غزو الروم لشاطئ البرلس عام ٥٣ هـ وعزيمتهم في عهد والي مصر مسلمة ابن مخلد (٤٧ ـ ٦٢ هـ) ومسلمة هو الذي أمر بابتناء منارات المساجد كلها.

ـ ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ ـ ٨٦ هـ)، وقد اتخذ حلوان مقراً للإمارة بدلاً من الفسطاط، وتوفي عبد العزيز في ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ، ودفن بالفسطاط.

ـ قدوم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إلى مصر في (شوال عام ١٣٢ هـ/مايو عام ٧٥٠ م) ومقتله ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية، ودخل صالح بن علي الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة معلناً بدء قيام الدولة العباسية ودخول مصر تحت سلطانها.

ـ قدوم أمير المؤمنين المأمون لمصر في عشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، ودخوله الفسطاط، وركب المأمون فنظر إلى المقياس، وأمر باقامة جسر آخر على النيل بين الروضة والجيزة وترك القديم مكانه، وزار المأمون الصعيد، كما زار سمخا، والفسطاط، وحلوان، وارتحل إلى بغداد يوم الخميس لثماني عشرة من صفر عام ٢١٧ هـ، فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً.

ـ ولاية عنبسة بن اسحاق الضبي على مصر (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٥٦ م). وفي ولايته نزل أسطول الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ هـ، وقتلوا بها عدداً كبيراً من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال، فمضى عنبسة إليهم، فهربوا إلى تنيس، فأمر المتوكل بابتناء حصن دمياط، وابتدىء في بنائه عام ٢٣٩ هـ.

ـ غزو الروم للفرما بأسطولهم عام ٢٤٥ هـ فمضى إليهم والي مصر يزيد بن عبدالله التركي فلم يلقهم..

ـ قيام الدولة الطولونية عام ٢٥٤ هـ، واهتمام أحمد بن طولون بانتاء أسطول مصري وفتحه لبرقة، ورجع أحمد بن طولون الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب عام ٢٦٨ هـ وتأسيس أحمد ابن طولون لامبراطورية واسعة النطاق وتوفي أحمد ليلة الأحد (بعشر خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٤ م).

ـ ولاية خماروية أحمد بن طولون على مصر (٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ/ ٨٨٤ ـ ٨٩٥ م) ودعم سلطان مصر في الشام وغيره من الولايات وفي عهده قدم

رسول الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) في شهر رمضان سنة ٢٨٠ هـ بالهدايا، وطلب زواج المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه وتم ذلك (عام ٢٨١ هـ ـ ٨٩٤ م). وقتل خمارويه بدمشق ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين للهجرة، ويقال: ان خدمه قتلوه. وحمل خمارويه إلى الفسطاط فدفن بها.. ولا شك أن مقتله كان مؤامرة سياسية ضد مصر.

ـ ولاية هارون بن خمارويه على مصر (٢٨٢ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٩٦ ـ ٩٠٦ م)، وقد مات مقتولاً.

ـ ولاية شيبان بن أحمد بن طولون، وسقوط الدولة الطولونية، وحرق القطائع في ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ، وكانت القطائع عاصمة مصر في عهد الدولة الطولونية، بناها أحمد بن طولون، غربي القلعة، وتمتد إلى حي السيدة زينب، وفيها مسجد أحمد بن طولون.

ـ ولاية محمد بن طنج الأخشيدي على مصر عام ٣٢٣ هـ من قبل الخليفة الراضي العباسي.

ـ ٥ ـ

اما أشهر قضاة مصر كما ذكر الكندي فمنهم:

ـ كعب بن يسار، وكان حكماً في الجاهلية، ولي قضاء مصر عام (٢٣ هـ/٦٤٤ م).

ـ عابس بن سعيد (٦٠ ـ ٦٨ هـ).

ـ عبد الرحمن بن حجيرة (٦٩ ـ ٨٣ هـ)، وكان من أفقه الناس، وكان ابن عباس يشيد بعلمه وفقهه.

ـ عبد الرحمن بن معاوية بن حديج (٨٦ هـ) وكان أول قاض نظر في أموال اليتامى.

ـ أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد (١٤٤ ـ ١٥٤ هـ) كان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل أبى أن يأخذ من مرتبه بقدر ما اشتغل، وقال: انما أنا عامل للمسلمين، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ مالهم..

ـ عبدالله بن لهيعة الحضرمي (١٥٥ ـ ١٦٤ هـ) وكان أول وال يخرج مع الشهود من الصالحين لطلب هلال رمضان بالجيزة، فهو أول القضاة الذين ساروا في طلب الهلال.

- ٦ -

وبعد فلقد كان الكندي مؤرخاً ثقة في كل ما دونه، وكان موضع تقدير الناس عامة، ومات بعد أن ترك ذكراً خالداً وتراثاً باقياً على مدى الأيام.



كتاب الأمالي

للقالي

- ١ -

أبو علي القالي البغدادي (٢٨٨ - ٢٥٦ هـ: ٩٠٢ - ٩٦٨ م) شخصية طريفة، من الشخصيات التي نبغت في القرن الرابع الهجري، وقامت بدور كبير في خدمة اللغة والتراث وتكوين أجيال من العلماء، يهبون حياتهم للعلم وفي سبيله، ويحاضرون ويؤلفون ويدرسون لتلاميذهم، ويلتقي الناس عليهم مبهورين بعلمهم معجبين بآثارهم، متتلمذين على مؤلفاتهم، والطريف في شخصية أبي علي القالي أنه نسب إلى « قالى قلا » إحدى مدن الثغور الاسلامية الواقعة على الحدود بين دولة الخلافة العباسية وامبراطورية الروم الشرقية، ومع ذلك فلم يكن من أهل « قالى قلا » ولا من مواليدها، إنما كان مولده في منازجرد القريبة من بحيرة وان الواقعة شرقي الفرات في ديار بكر، وترجع نسبته إلى « قالى قلا » إلى حادث صغير وقع له سنذكره بعد قليل.

ومهما كان فلقد كان أبو علي إسماعيل ابن القاسم القالي يعيش في إقليم الثغور الاسلامية. ومن شأن هذه الثغور ان تكون موضعاً دائماً لهجوم البيزنطيين الروم عليها، وأن يكون الدفاع عنها قائماً على قدم وساق، وأن تكون الحياة فيها قلقة مضطربة، يسودها الخوف والفزع والاضراب.

والطريف أيضاً أن القالي ينسب أيضاً إلى بغداد، فيقال له: أبو علي القالي البغدادي، وذلك لأن بغداد كانت هي العاصمة الكبرى التي آثر القالي أن يهاجر إليها، وأن يقيم فيها.

وليس ذلك كله هو وحده مبعث الطرافة في أمر القالي، بل إنه ينسب كذلك إلى الأندلس، وإلى قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، والمنافسة للخلافة العباسية كل المنافسة، وذلك لأنه هاجر إليها من بغداد وأقام فيها أكثر من ربع قرن، وتوفي فيها فهو قاليٌّ، وهو بغداديٌّ، وهو أندلسيٌّ قرطبيٌّ.. وذلك كله ليس مبعث عظمة أبي علي القالي، ولكن مبعث مجده وخلوده، أنه عاش من رهبان العلم، وأفنى حياته في سبيله وأنه عكف على خدمة اللغة طيلة حياته، وأنه أثرى الفكر اللغوي والأدبي في عصره وبعد عصره حتى اليوم.. ومن أجل ذلك كانت شهرة القالي، وكان مجده الكبير، يقول الامـام الضبيّ في كتابه «بغية الملتمس» عن القالي: إنه كان أحفظ أهل زمانه وأرواهم للشعر، وأعلمهم بعلل النحو، على مذهب البصريين.

فقد ولد عام ٢٨٨ هـ في إحدى قرى ديار بكر، وتسمى «منازجرد» من أسرة تنتمي بالولاء لعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي العظيم، ونشأ في قريته يحفظ القرآن، ويتعلم اللغة وعلومها، حتى إذا حصَّل أطرافاً من العلوم الاسلامية والعربية، رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل. وفي طريقه إلى بغداد كان في رفقة جماعة من «قالي قلا»، وكانوا ـ كما يقول القالي ـ يكرمون لمكانهم من الثغر، فلما دخل معهم بغداد نسب إليهم، لكونه معهم، وأطلق عليه القالي، وأحياناً كانوا يسمُّونه البغدادي لطول إقامته في بغداد. وكان رحيله إليها عام ٣٠٣ هـ، وهو في الخامسة عشرة من عمره. ومكث فيها ربع قرن يطلب العلم، يلقى العلماء.

ففي بغداد تتلمذ على فحول العلماء، وأئمة اللغة ففي الحديث النبوي الشريف: تتلمذ على البغوي (٣١٧ هـ) والعدوي (ـ ٣١٩ هـ)، السجستاني (ـ ٣١٦ هـ)، وابن مجاهد، وابن صاعد، والمحاملي، وسواهم وفي علوم اللغة تتلمذ على الزجاج (ـ ٣١١ هـ)، وابن درستويه (ـ ٣٤٧ هـ)، والأخفش الصغير (ـ ٣١٥ هـ)، وابن دريد (ـ ٣٢١ هـ)، ونفطويه (ـ ٣٢٣ هـ)، وابن السراج (ـ ٣١٦ هـ)، وابن الأنباري (ـ ٣٢٨ هـ)، وسواهم. ولكنه كان يؤثر مجلس ابن دريد، مشدوداً إلى رواياته ومجالسه الغريبة، يحفظ عنه،

ويدوّن من مسموعاته عنه كثيراً من غرائب اللغة والشعر والأنساب. وحين توفي ابن دريد، حزن القالي لوفاته حزناً شديداً وقال: أرجو ألا أقيم بعده في بغداد.

ظهر نبوغ القالي في علوم اللغة والأدب لأساتذته وأخذت شهرته تزداد في حلقات العلم في بغداد وصار موضع ثناء شيوخه وتقديرهم لمواهبه العلمية، وعاش على الكفاف في بغداد ربع قرن متعلماً ومعلماً ومحققاً ومفيداً، حتى جاءت (سنة ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م)، وهنا جاءت المفاجأة.

رسالة من الخليفة الأموي في قرطبة بالأندلس، تصل إلى القالي على يد بعض طلاب العلم من الوافدين من قرطبة إلى بغداد، وفي هذه الرسالة يدعو الخليفة الناصر عبد الرحمن الأموي صاحبنا القالي إلى قرطبة عاصمة ملكه وإلى الاقامة فيها.. ولا عجب في ذلك فالقالي ينتمي إلى بني أمية، وهواه معهم، وازوراره عن بني العباس معروف للخاصة من أترابه وزملائه، ولبني أمية دولة في الأندلس أسسها عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ، وظلت قائمة في عصر القالي.. وكان من الممكن أن يسمع الأمويون في الأندلس بعالم كبير ينتمي إلى بني أمية، يعيش في بغداد شبه مغضوب عليه، أو أن يرسل القالي نفسه إلى الخليفة الأموي في قرطبة رسالة مع أحد طلاب العلم من الأندلس، من الوافدين على بغداد.

والناصر عبد الرحمن الأموي الخليفة كان عهده في الأندلس عهد ازدهار ورخاء وحضارة، وهو الذي شيد الزهراء ومسجد قرطبة الكبير وغيرهما من المؤسسات الثقافية الكبيرة في عاصمة الأندلس الجميلة، وقد ظل في الحكم خمسين عاماً (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)، وكان ابنه وولي عهده الحكم بن الناصر محباً للعلم، يشجع العلماء ويرعاهم، وحكم الأندلس بعد أبيه ستة عشر عاماً (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ). وفي عهد الناصر وابنه الحكم أنشئت المدارس والجامعات والمكتبات الضخمة، وازدهرت الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ازدهاراً لم يحدث له نظير من قبل. وكانت قرطبة آنذاك تنافس بغداد حضارة وعمراناً، وسكانها أكثر من مليون نسمة، وعلى مقربة منها أو في ضواحيها مدينة

الزهراء التي بناها الناصر. وينقل المقري في كتابه نفح الطيب عن أبي سعيد مؤلف كتاب «الحلة المذهبة في مملكة قرطبة» أن هذه المدينة - قرطبة - كانت من أكثر بلاد الأندلس حباً للكتب، وإقبالاً عليها، وكان أهلها أشد الناس عناية بجمع المؤلفات النادرة، وقل أن يوجد رئيس أو مرءوس إلا وفي بيته خزانة كتب ضخمة، تحتوي على نفائس المخطوطات.. ويقول سيديو عن قرطبة: إنها كانت تضاء ليلاً ونهاراً، وكانت شوارعها يفوح منها الطيب لكثرة ما يلقى فيها من الزهور، وكانت الفرق الموسيقية تعزف ألحانها في الشوارع والميادين والمتنزَّهات.

- ٢ -

وهكذا في لحظة حاسمة في حياة القالي، وصلته رسالة من الناصر، خليفة المسلمين في الأندلس، يرغِّبه فيها في الوفود عليه، لنشر علمه.. ولبَّى القالي الدعوة، وسافر إلى قرطبة، مودعاً بغداد، مختتماً عهده فيها، وأيامه بها. وعن طريق القاهرة والقيروان والمهدية، وتلمسان، وفاس، سار القالي إلى قرطبة ومن طنجة ركب سفينة إلى الشاطىء الأندلسي وفي أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التي تقلُّه، فتلقاه في الميناء - بأمر من الحكم ولي العهد «ابن رماحس» وهو بمثابة محافظ لهذا الثغر، حيث استقبل القالي في وفد من وجوه الرعية، وصحبه إلى قرطبة في موكب نبيل، فدخلها في شعبان من (عام ٣٣٠ هـ/٩٤٢ م) بعد رحلة طويلة تذاكر فيها هو وأصحابه الآداب وغرائب الأشعار ومسائل اللغة.

وكان من الوفد الشعبي الذي استقبل القالي في الميناء، وصحبه إلى قرطبة، الأديب الأندلسي المعروف، ابن رفاعة الألبيري، وللقالي معه قصة مشهورة، حيث استمع الألبيري إلى القالي يروي بيتاً جاهلياً لعبدة بن الطبيب، رواية تدل على جهل بعروض الشعر، وتدل على أن القالي لا يعرف صحيح الشعر من مكسوره، فأزور الألبيري عن القالي، وقال: مع هذا يُوفدُ على أمير المؤمنين الناصر وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين

الناس، لا يغلط فيه الصبيان، والله لا تبعته خطوة.. وانصرف عن الوفد الذي صحب القالي. ونسي الألبيري مكانة القالي العلمية التي لا يقدح فيها خطؤه في رواية بيت شعر، بل تناسى المغزى السياسي لوفادة القالي إلى قرطبة التي تنافس بغداد آنذاك. وهذه القصة جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء، ويتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم، ويقول لهم: « إن علمي علم رواية وليس علم دراية فخذوا عني ما نقلت ».

دخل القالي قرطبة لثلاث بقين من شعبان عام ٣٣٠ هـ، فأكرم الناصر وفادته، وأعلى في دولته مكانته، وآثره بالعطف والحب، وجعله في حاشية ولي عهده الحكم، أستاذاً له، واستوطن قرطبة، وأخذ يلقي دروسه ومحاضراته في حلقات مسجدها الجامع، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه، وأقبل عليه الأندلسيون للافادة والتعلم والتأدب على دروسه في حلقات المسجد الجامع، حيث كان يلقيها من روايته وحفظه في كل يوم خميس في مسجد قرطبة الجامع بمدينة الزهراء. وكان أبو علي واسع العلم، كثير الرواية، طويل الباع في علوم الأدب واللغة، مما شهد به علماء عصره فسمع الناس عنه وقرءوا عليه كتب اللغة والأخبار والآمالي، وعظمت استفادة الشباب الأندلسي منه. وكان من تلاميذه الزبيدي مؤلف كتاب « مختصر العين »، وهو إمام في اللغة والأدب في الأندلس في النصف الثاني من القرن الرابع وللروادي الشاعر الأندلسي الكبير قصيدة مدح بها القالي ونوَّه فيها بعلمه.

وعاش القالي في ظلال خلافة الخليفة الناصر عشرين سنة، وفي ظلال الخليفة من بعده الحكم بن الناصر ستة أعوام، توفي بعدها عام ٣٥٦ هـ، فحزن الأندلسيون لوفاته حزناً شديداً.

ومما يدلنا على مكانة القالي ان الخليفة الناصر وولي عهده الحكم عهدا إليه بتمثيل الدولة في الخطابة الرسمية في حفل استقبال وفد الروم، ولولا أن أبا علي أرتج عليه في هذا الموقف فقام مقامه منذر ابن سعيد البلوطي. وكانت وفاة القالي في قرطبة في ربيع الآخر من عام ٣٥٦ هـ، وهو العام الذي توفي

فيه أبو الفرج الأصفهاني مؤلف كتاب «الأغاني».. وأبو الفرج هَواهُ أيضاً أموي ولا ندري سبب عدم هجرته إلى قرطبة أيضاً.

- ٣ -

وتراث القالي تراث كبير، ضاع أكثره، ومن مؤلفاته: كتاب الممدود والمقصور، كتاب البارع في اللغة، كان يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة، ويحتوي على مائة مجلد، ولم يصنف مثله في الاحاطة والاستيعاب وهو معجم لغوي ابتدأ فيه القالي منذ عام ٣٣٩ هـ، وعاونه فيه وراق كان من تلاميذه اسمه محمد بن الحسين الفهري من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠ هـ، واستمر في تأليفه حتى توفي إلى رحمة الله، فأتمه الوراق بمعاونة الجياني. وهو مرتب وفق مخارج الحروف والكتاب مسودات، ولم يبيض منه إلا أبواب معدودة ومن مؤلفات القالي أيضاً: كتاب حلي الانسان وكتاب فعلت وأفعلت - كتاب مقاتل الفرسان - كتاب تفسير السبع الطوال (المعلقات السبع) - كتاب الأمثال وهو مرتب على حروف المعجم - كتاب النوادر وأشهر مؤلفات القالي هو كتابه الأمالي.

- ٤ -

طبع كتاب الآمالي في بولاق عام ١٣٢٢ هـ، ثم طبع طبعة محققة في دار الكتب المصرية عام ١٣٢٦ هـ حيث صدر محققاً في جزءين، الحق بهما جزء ثالث يتضمن «ذيل النوادر»، وهو من نفائس المؤلفات التي يغترف منها اللغويون والأدباء والعلماء.. كما الحق بالكتاب كتاب «التنبيه على أوهام القالي في آماليه» للوزير البكري الأندلسي والآمالي مع مظهره الأدبي العالي يدل على ثقافة لغوية واسعة، وهو حافل بالفوائد اللغوية التي لا توجد في كتاب، فنجد القالي يتحدث عن مواد لغوية كثيرة حديثاً ضافياً، ويفسر غريب أحاديث نبوية كثيرة، ويخصص مطالب لتسمية أسنان الابل وترتيبها وأسماء الرجل وأسماء الشخص وأسماء الألوان وأوصافها، وسوى ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من ثقافات لغوية عرض لها المؤلف قصداً، أو ذكرها عرضاً أثناء

شرحه لنصوص أدبية قديمة أو محدثة، وفي الكتاب مجالس أدبية عديدة فيها أسلوب القصة، رواها القالي عن أستاذه ابن دريد، يقال إنها الصورة الأولى لفن المقامات قبل أن يتطور هذا الفن على يدي بديع الزمان الهمذاني (- ٣٩٨ هـ) إلى الصورة الأخيرة له، وقد قام المستشرق كرونكو، ببحث أحصى فيه أسانيد كتاب الآمالي، وأثبت أن نصفها مروي عن ابن دريد أستاذ القالي ومن مجالس ابن دريد الواردة في «الآمالي» حديث البنات الثلاث اللاتي وصفْن فيه ما يحببن من الأزواج، وسوى ذلك. أما ثقافات آمالي القالي الأدبية والنقدية فينطق بها الكتاب بما احتوى عليه من روائع الآثار الأدبية المروية عن العصور الأدبية التي سبقت هجرة القالي إلى الأندلس، وهي نصوص أدبية - رفيعة قد لا توجد في مصدر آخر، سواء منها ما كان نثراً أم شعراً.

ونصوص كتاب الأمالي الأدبية تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من حياة العرب في الجاهلية والاسلام حتى نهايات القرن الثالث الهجري. ومن بحوث الكتاب مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء في الحديث أو البكاء ووصف الدموع، أو في العناق أو غير ذلك، ويذكر كثيراً من القصائد المشهورة في الأدب العربي، أو يعرض لحديث الشعر والنثر. وكثيراً ما يستروح القالي إلى شيء من النقد فيذكر مثلاً سؤال بعض خلفاء بني أمية لجرير عن أشعر الناس، أو يروي مفاضلة بين عمر وجميل في الغزل، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر، مما يدل على روح النقد الأصيلة. أما ملاحظات البكري على القالي فمع كثرتها نجدها تتصل بتصحيح اسم من الأسماء، أو تحقيق رواية أدبية، أو توجيه نص من النصوص توجيهاً آخر.. أو غير ذلك، وهي على أية حال تنبيهات مفيدة.

إن كتاب «الأمالي» بمثابة دائرة معارف في الأدب القديم، ومنهجها هو منهج الرواية، وكان القالي يقول لناقديه علمي علم رواية وليس بعلم دراية. والكتاب صورة لأدب المشرق إلى نحو منتصف القرن الثالث الهجري، وآداب المشرق كانت هي الطرفة الجميلة عند الأندلسيين وكانت هي موضع الاهتمام

الدائم، لأنه اللغة والأدب ومصدرها الأول هو المشرق وحده ومن ثم فإن القالي لم يرو في كتابه شيئاً من آداب الأندلسيين، ولم يستشهد بشعر لهم: فالأمالي خلو من الآداب الأندلسية تماماً. وبعد فهذه هي شخصية القالي الطريفة، وشخصية كتابه «الأمالي»، على وجه من الايجاز، وبالله التوفيق.

ديوان المؤيد الشيرازي

- ١ -

ها نحن أولاء في رحاب العصر الفاطمي..

صورة رائعة لحضارة مصر الاسلامية ففي ظلاله بلغت مصر منزلة عالية من التقدم والازدهار والرخاء.

وقد شاركت في بناء حضارة هذا العصر عقول كبيرة، من مختلف الشعوب الاسلامية، وكانت الصلات الفكرية والروحية بينها آنذاك وثيقة.

ومن هذه العقول الامام المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (٣٩٠ - ٤٧٠ هـ/ ٩٩٩ - ١٠٧٨ م)، وهو شخصية اسلامية جليلة، أدت دوراً كبيراً في خدمة مصر في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وفي ظلال حكم الدولة الفاطمية في مصر، والدولة البويهية في العراق وفارس.

وكان المؤيد من فلاسفة المذهب الاسماعيلي، وأشهر أئمته، وقد نشأ في أسرة دينية كبيرة وكان أبوه وثيق الصلة بالحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر، وفي هذا الوسط نشأ المؤيد، وتلقى ثقافته، حيث أحاط بجميع العلوم الاسلامية، وبعد سنوات أصبح رئيس الدعوة في شيراز.

وتوثقت صلته بالأمراء البويهيين، واستطاع أن يكسب عطفهم ببلاغته وقوة حجته. واستمر في القيام بالدعوة في شيراز والأهواز. ودعا في الخطبة

للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ومن ثم أخذت خلافة بغداد تضيق عليه الخناق.. فرحل إلى القاهرة عام ٤٣٦ هـ.

وفي القاهرة رحب به الخليفة المستنصر بالله، واستقبله استقبالاً رسمياً.. ووصف المؤيد مقابلته التاريخية له وصفاً دقيقاً في كتابه «مسيرة المؤيد في الدين».

وما لبث أن أصدر المستنصر بالله أمراً بتقليد المؤيد ديوان الانشاء في القاهرة، وبزيادة مخصصاته المالية، واحتل مكاناً رفيعاً في البلاط المستنصري..

وبعد ثلاث سنوات من قدومه إلى مصر وفد عليها الرحالة ناصر خسرو، الذي أقام في مصر ثلاث سنوات، ووصف الحضارة الفاطمية في كتابه «سفر نامه» وصفاً رائعاً.

واستغل المؤيد عمله في «ديوان الانشاء» في توسيع نطاق الدعوة إلى المذهب الاسماعيلي، وامتدادها إلى بغداد، حيث أمر أحد أتباعه عام ٤٥٠ هـ بالخطبة في بغداد على منابرها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله ففعل ذلك نحو ثلاثة عشر شهراً. ومن أجل ذلك قدرت له الخلافة العباسية جهاده من أجل الدعوة والدولة وأسندت إليه عام ٤٥١ هـ رياسة الدعوة، وبذلك أصبح يلقب «راعي الدعاة».. وبجهوده قدم حسن الصباح مصر عام ٤٦٩ هـ.

وكان الخلفاء الفاطميون يعملون جادين من أجل قوة الدولة، وازدهار الحضارة ونهضة العلوم والآداب، فأجزلوا للعلماء العطاء، وأسسوا دار العلم أو «دار الحكمة» وملأوها بالكتب في مختلف العلوم والفنون، وخصصوا جانباً منها ليلقي فيه الدعاة محاضراتهم، بل جعلوا مكاناً للدعوة أشبه بقاعة المحاضرات في عرفنا المعاصر، وكان الدعاة والقضاة يقومون بالقاء محاضراتهم كل يوم أحد للرجال، وكل يوم أربعاء للنساء، وكل يوم ثلاثاء لكبار رجالات الدولة.

ويصف المقريزي اقبال الناس على شهود هذه المحاضرات فيقول: انهم ازدحموا مرة لسماع القاضي محمد بن النعمان، فمات منهم أحد عشر رجلاً من

شدة الزحام[1] وكان كتاب «دعائم الاسلام» للقاضي النعمان من أهم المؤلفات لديهم.

وقد أسندت رياسة الدعوة عندهم إلى عالم كبير أطلق عليه لقب «داعي الدعاة» وكانت رتبته تلي رتبة «قاضي القضاة» ويساعده في شئون الدعوة اثنا عشر نقيباً، وله نواب يتولون عنه العمل في الأقاليم، «وداعي الدعاة» هو الصلة بين الخليفة ورعاياه، وله منزلته العالية في قصر الخلافة، في مختلف شئون الدولة والخلافة.

وعاش المؤيد مشمولاً بعطف الخليفة المستنصر بالله، وبتشجيعه، كتب إليه الخليفة مرة يقول:

يا حجة مشهورة في الورى
وطول علم أعجز المرتقى
شيعتنا عدموا رشدهم
في الغرب يا صاح وفي الشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا
وكن لهم كالوالد المشفق

ومما كتبه المؤيد إلى المستنصر قوله في قصيدة طويلة:

سلام على العترة الطاهرة
وأهلاً بأنوارها الباهرة
سلام على المصطفى أحمد
ولي الشفاعة في الآخرة
سلام على المرتضى حيدر
وأبنائه الأنجم الزاهرة
سلام عليكم فمحصولهم
لديك أيا صاحب القاهرة

---

(١) «١ - ٢٢٢ خطط المقريزي».

وقد خلّف المؤيد عدا ديوان شعره كتباً تعد من نفائس المؤلفات، ومنها:

- المجالس المؤيدية، وهي محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة.
- سيرة المؤيد في الدين.
- قصيدة الاسكندرية التي تسمى «ذات الدوحة».

- ٣ -

وديوان شعر المؤيد حافل بالقصائد الزاخرة بالمعتقدات الاسماعيلية، إذ كان شعره كله موقوفاً على خدمة الدعوة، وتقريبها إلى أذهان الجماهير، لأنه شاعر ملتزم.

ومن ثم صار شعره مما يتغنى به الناس، لسهولته ووضوحه، وعذوبته وموسيقاه الحلوة الممتعة المؤثرة، إلى جانب تدفق العاطفة الدينية فيه.

- ٣ -

وديوان المؤيد فريد في بابه، وفيه كل أصول الدعوة والمذهب.

وله أرجوزة طويلة في الأئمة، يقول فيها:

وهم أولو أئمة الهدى
عصمة من لاذ بهم من الورى
مفروضة طاعتهم على الامم
قاطبة من عرب ومن عجم

وفي الديوان قصائد تتحدث عن الظاهر والباطن، وعن جل المصطلحات والعقائد، وتحفل بالجدل للخصوم، وبمدح الائمة الخلفاء.

وشعره لا يزال يردد حتى اليوم في كل المناسبات الدينية، ومنه كما في الديوان:

الهي دعوتك سرا وجهرا
أيا مالك الملك خلقاً وأمرا
ويا من يصرفنا كيف شاء
حياة وموتاً وحشراً ونشرا
الهي شددت رحال الرجاء
اليك فعفوا الهي وغفرا

وللمؤيد فضل رعاية الشعراء وأعلاء شأنهم في الدولة، وتقريبهم إلى الخلفاء والأمراء والوزراء..

- ٤ -

وإذا كان الحاكم الفاطمي قد أمر وزيره الفلاحي أن يكتب إلى عزيز الدولة والي حلب ليحمل أبا العلاء المعري إلى مصر، وبأن يسمح له بخراج المعرة في حياته، فإن المستنصر الفاطمي قد بذل لأبي العلاء ما لبيت المال في «معرة النعمان» من أموال وان كان أبو العلاء لم يقبل منه شيئاً، وقد اعتذر بأن ظروفه لا تسمح له بالسفر إلى القاهرة. وكذلك كتب المؤيد إلى والي حلب أن يرفع من منزلة أبي العلاء، وأن يجري عليه من الأموال ما يقوم بحاجاته، مما يعد لفتة كريمة عادت على الشعر والشعراء في عصره بالازدهار والقوة.

وإذا كان المؤيد قد توفي في عام ٤٧٠ للهجرة، فإن شعره خلد اسمه في صحف التاريخ، شاعراً موهوباً عبقرياً، ذائع الصيت، لحلاوة موسيقاه وخفة روحه وجمال أسلوبه، وعذوبة لفظه.

ولا يزال الديوان وأشعاره فيه موضع الحفاوة والعناية من كل محب للأدب، ويكثر في شعره الغناء من مختلف الطبقات منذ عصر المؤيد حتى اليوم.. رحمه الله..

الفصول والغايات

لأبي العلاء

- ١ -

أبو العلاء (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ/ ٩٧٤ - ١٠٥٧ م).. من أشهر الشعراء العرب، ومن أبعدهم صيتاً وهو أحد المفكرين العرب، الذين يعتز بهم تاريخنا الطويل.

وكتابه «الفصول والغايات» من أشهر كتبه الباقية وبخاصة أن بعض القدماء اتهم أبا العلاء بأنه كتبه ليعارض به القرآن الكريم. وليس في الكتاب كلمة أو حرف يشير إلى هذه المعارضة، أو يحمل أية صورة من صورها، وأسلوب الكتاب بعيد كل البعد عن قضية كبيرة، مثل قضية معارضة كتاب الله الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والموجود بين أيدينا اليوم من «الفصول والغايات» هو جزء منه، وكان العثور على هذا الجزء معجزة من معجزات القدر.

لقد كان من السابقين إلى العثور على هذا الجزء من «الفصول والغايات» محب الدين الخطيب صاحب مجلتي الفتح والزهراء. إذ عثر عليه في أوراق متناثرة مخطوطة «دشت» اشتراها من شيخ وراقي مكة المكرمة (عام ١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م)، فاستخرج هذا الجزء من الكتاب منها ورتبه، وكتب عنه في مجلته «الزهراء»[1]، وذكر بأن أحمد تيمور باشا أدخله في خزانته في

(١) المجلد الأول عام ١٤٤٣ هـ.

رمضان من السنة نفسها صيانة له وحفظاً. وكتب عنه طاهر الطناحي في مجلة الهلال «المجلد ٤٢ - يناير ١٩٣٤»، ويحمل المخطوط رقم «٨٣٨ أدب - دار الكتب المصرية - التيمورية»، وبه بنز من أوله وأربعة خروم في وسطه في الصفحات ٣٤ - ٣٦ - ٥٠ - ٧٨. وهو مضبوط بالشكل الكامل.

وقد حبب صاحب «الرسالة» المرحوم الاستاذ أحمد الزيات إلى صديقه الأثير لديه، محمود حسن زناتي، رحمهما الله، آنذاك أن يولي هذا الكتاب عنايته وجهده. فأخذ من يومئذ في تحقيقه، وجهد في ضبطه وتفسير غريبه، وتزود في ذلك بما قرأه وسمعه من العالمين الكبيرين: محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنفيطي، وسيد بن علي المرصفي (- ١٩٣١ م) في الأزهر الشريف. حتى انتهى من تحقيق الكتاب - وطبع في يناير ١٩٣٨.

والكتاب بحق، وكما قال محقق متعة الأديب وأمنية العالم، إذ ملأه المعري بشتى المعارف والعلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والفقه والحديث، وشتى الثقافات الدينية واللغوية والأدبية.

وكان المعري يملي الفقرة من كتابه على تلاميذه، ويسميها فصلاً، ثم يختمها بخاتمة يسميها غاية وهي عنده بمنزلة القافية في البيت الشعري، وقد تطول الفقرة وقد تقصر، وبعد ذلك يأخذ في املاء التفسير والشرح للفقرة، لتوضيح ما يخفى على طلابه، من معنى بعيد، أو لفظ غريب. فإذا انتهى من التفسير، وأراد العودة إلى الاملاء، قال «رجع»، يريد نفسه، أو رجع السياق في الكتاب و«الفصول والغايات» كله على هذا النسق المأثور.

وما وصل إلينا من الكتاب هو جزء منه، ونشر باسم الجزء الأول، ويبدأ بحرف الهمزة وينتهي بحرف الخاء، وباقي الكتاب مفقود..

والكثير من القدماء، ممن كتبوا عن المعري، لم يبلغهم نبأ هذا الكتاب، فلم يذكروه أو يشيروا إليه. ومن ذكره منهم حملوا على المعري بسببين مدعين ان أبا العلاء المعري قد عارض به القرآن الكريم، مع أن الكتاب كله فصول في تمجيد الله جل جلاله، وتنزيهه، وفي المواعظ والحكم والأخلاق والآداب.

وفي فصول الكتاب ما يدحض هذا الافتراء الذي يبدو أنه كلام حساد شانئين.

وقيل إن المعري بدأ في تأليف هذا الكتاب في الشام، وأتمه بعد عودته من بغداد. ويقول المعري في أوائل الكتاب:

« ما آمل؟ وقد فقدت أبوي، وأخذت الشبيبة من يدي».

ويقول أيضاً: أعنّي ربي، حتى تغنيني عن أمي وأبي، فقد ذهبا، وأنا إلى رحمتك فقير.

وقد توفي والد أبي العلاء بالشام (عام ٣٧٨ هـ/ ٩٨٩ م)، والمعري الابن في الخامسة عشرة من عمره. أما والدته فقد توفيت وهو بالعراق (عام ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م)، وكان قد وصله ما ينبئه بمرضها، فأسرع بالسير إليها، فلم يدركها، ووجد المنيّة قد سبقته إليها عام ٤٠٠ هـ، فالكتاب إذا قد أُلف بعد هذا التاريخ، وأبو العلاء في السابعة والثلاثين من عمره.

ومؤلفات المعري لم يبق منها إلا القليل الأقل، وفي مقدمتها: «رسالة الغفران» التي حققتها الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، تحقيقاً علمياً دقيقاً، ويضاف إليها: «اللزوميات، وديوان سقط الزند»، وتعليقات على ديوان البحتري، سماها «عبث الوليد»، وله شرح مفقود على الحماسة، ومن تراثه كتاب «ملقى السبيل» الذي نشره حسن حسني عبد الوهاب في مجلة المقتبس «ألسنة السابعة» عن مخطوطة بالاسكوريال.

كما بقي من تراثه مجموعة من رسائله، نشرها المستشرق الانجليزي مارجليوث عام ١٧٩٨ م، وطبعت في اكسفورد، وكذلك رسالة الملائكة التي نشرت في دمشق عن مخطوطة بالظاهرية، بتحقيق محمد سليم الجندي، وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى، والذي فقدناه من تراث المعري كثير، ومنه كتابه «الايك والغصون» الذي زادت أجزاؤه على المائة، وسوى ذلك.

وبعض مؤلفات المعري ضاع أثناء الأحداث التي مرت بالعالم العربي الاسلامي خلال الحروب الصليبية المدمرة في مصر والشام، وبالغزو المغولي المخرب كذلك. وقد سقطت المعرة في أيدي الصليبيين (عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م).

ولقد شغل المعري الدنيا والناس، منذ وفاته، وألفت الكتب والدراسات الكثيرة عنه وعن أدبه منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، وبقي ذكره محاطاً بهالة من المجد والخلود إلى اليوم.

- ٢ -

وشيخ المعرة هو الشاعر الحكيم أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد التنوخي.

وقد ولد بمعرة النعمان (عام ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤ م) في بيت مذكور بالعلم، مشهور بالأدب والفضل. وكانت المعرة من بلاد الدولة الحمدانية آنذاك، ويتنازعها الحمدانيون والفاطميون ضمن اقليم حلب، الذي تقع المعرة فيه.

وفقد أبو العلاء بصره وهو في الثالثة من عمره، وبعد أن اجتاز مرحلة الطفولة، ودخل في عصر الشباب، عكف على العلوم الاسلامية والعربية دراسة وحفظاً، وأصبح نادرة عصره في جودة الحفظ، وسرعة الفهم، وكثرة التحصيل، حتى لقد ضرب به المثل في ذلك كله.

وعاش في المعرة، متنقلاً في بعض بلدان الشام، ولما ضاقت به بلده، رحل إلى بغداد (عام ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م)، وهي دار الاسلام، ومنارة الثقافة، وصرح العلوم والآداب، وسوق التجارة العالمية، وموطن الحضارة الاسلامية التالدة، وتموج بالوافدين عليها من مختلف أنحاء العالم الاسلامي، وفي بغداد لقي العلماء والفضلاء والأدباء، ولم يلبث أن بلغه مرض أمه فأسرع بالعودة إلى المعرة، ولكنه قبل أن يبلغها بلغه موت أمه..

وعاد المعري إلى بلده مكدوداً مجهداً، ولزم بيته، وأطلق على نفسه لقب

«رهين المحبسين»، ولزم الصوم، وامتنع عن أكل اللحوم، ونظم لزومياته، وعاش زاهداً، ولم يفكر في الزواج.. وكان يردد بيته المأثور:

هـــــذا جنـــــاه أبي عـــلي   ومـــا جنيـــت عـــلى أحـــــد

وظل عاكفاً على الشعر والأدب ومجالس تلاميذه، حتى توفاه الله إلى رحمته عام ٤٤٩ هـ - ١٠٥٧ م، بعد مرض ألم به ثلاثة أيام، ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يؤبنونه بشعرهم، رحمه الله.

- ٣ -

يحمل «الفصول والغايات» روح المعري وفلسفته وآراءه في الحياة والمعرفة وزهده..

وهو مملوء بالحكم الانسانية الرفيعة، وعليه طابع أبي العلاء في التشاؤم وايثار العزلة وفي الزهد، وفي كل مجالات تفكيره..

يقول المعري في مطلع الكتاب، أي في أول الجزء الذي عثر عليه منه، وهوليس أول الكتاب حقاً، إذ مطلعه مفقود، مع ما فقد من فصول الكتاب وأجزائه:

أحلف بسيف هبار - أي قاطع - وفرس حبار - أي قوي سريع العدو - يدأب في طاعة الجبار - أي بالجهاد في سبيله، وذلك في عصر الحروب الموجهة ضد الاسلام - وبركة غيث مدرار - غزير - ترك البسيطة - الأرض - حسنة الخبار - أي المنظر - لقد خاب مضيع الليل والنهار، في استماع القينة - المغنية - وشرب العقار - الخمر - أصلح قلبك بالاذكار، صلاح النخلة بالابار - من يصلح النخل ويلقحه - لو كشف ما تحت الأحجار - القبور - فنظرت إلى الصديق المختار، أكبرت ما نزل به كل الأكبار، نحن من الزمن في خبار - يريد في امتحان، والخبار الأرض الصعبة - كم في نفسك من اعتبار، ألا تسمع قديمة الأخبار، أين ولد يعرب ونزار، ما بقي لهم من اصار - أي آثار - لا وخالق النهار، ما يرد الموت بالآباء.

وينتهي هذا الفصل، أو الفقرة، الذي يكتبه المعري تمجيداً له، وتحمل الفقرة في آخرها كلمة الآباء وهي غاية، وآخرها همزة كالروي في القافية للبيت الشعري.

ويلاحظ أن فكرة الموت هي المسيطرة على هذا الفصل، إذ كان موت أمه لا يزال أمامه وفي فكره، وتأثرت به كل حياته أشد التأثير.

ويلي هذا الفصل فصل آخر تسبقه لفظة «رجع»، أي رجع بعد التفسير إلى الحديث الموصول الذي يريد تسجيله، فماذا يقول أبو العلاء، في الفصل الجديد؟..

يقول: ما آمل؟ وقد فقدت أبوي، وأخذت الشبيبة من يدي، ومشيت إلى الأجل على قدمي، حتى كنت أطؤه بأخمصي، ووقع كل - أي عبء وثقل - الأيام علي. ونظرت عين المنية إلي، ان اشتعال الوضح - أي الشيب - بمفرقي، وأنا لا أفارق الغي، وأصبح أخا السلامة الحي، وأعلم أن الملحد - القبر - آخر منزل، وأن جسدي مزايل - أي مفارق - للحوباء - أي النفس والروح.. ولفظة الحوباء غاية.. ثم يأخذ المعري في التفسير والشرح.

وليس هناك أروع من هذه الصور البيانية التي تحمل روح المعري وفكره وأعماق نفسه إليك، تحمل كل مشاعره، وأدق أحاسيس وجدانه إلى نفس القارئ والسامع..

وبعد ذلك يرجع المعري إلى فصوله، وإلى حكمه وأمثاله، مسبوقة بكلمة «رجع»..

ويقول شيخ المعرة في فصوله:

العمل وإن قل يستكثر إذا اتصل ودام. لو نطقت كل يوم لفظة سوء لاسودت صحيفتك في رأس العام، ولو كسبت كل يوم حسنة عددت بعد زمن من الأبرار.

ومن حكمه في استقطاع أكل لحم الحمام خاصة والحيوان عامة:

أيها المسكين الغاد، ما أنت وحامة طوقها من الحمم، وبردها من الرماد، كان كاتباً خط في عنقها بمداد، تقدس خالقها في الوضح والسواد. ولها في الصبح نبرات كنبرات الرهبان، أما هتافها: سبحانك اللهم سبحان.

ويقول المعري في فصوله وغاياته:

أما الله فأزلي، لا أعلم ما يقول المعتزلي، والناس مطالبون على حسب العقول. وهو هنا يبدو مخاصماً للمعتزلة ولآرائهم العقلية الجافة.

- ٤ -

لقد بث أبو العلاء في كتابه «الفصول والغايات» لطلابه ومريديه كل ما وعاه صدره من معارف وأفكار، وتخير لذلك أجل مظهر يظهر فيه الكتاب، وهو تمجيد الله وتنزيهه وتسبيحه، والمواعظ الرقيقة العميقة الهادفة، ليكون ذلك أقرب إلى النفوس، وأقرب إلى رضاء الله عز وجل وإلى ثوابه ورحمته، وإلى الجزاء الكريم والنعيم المقيم.

وفي «الفصول والغايات» روحانية عالية، وخشوع وعبادة لله ما بعدهما من حديث يفتري على شيخ المعرة أبي العلاء.

إن هذا الجزء الذي بين أيدينا من «الفصول والغايات» لأبي العلاء، والذي تبتدىء غاياته من أثناء حرف الهمزة، وتنتهي بحرف الخاء، والذي فقد باقيه، لهو ثمرة تجربة طويلة وخبرة كبيرة، وثقافة واسعة، ومعاناة قاسية للحياة ولأحداثها التي عصفت بأحمد بن عبدالله بن سليمان.

وقد اختار له اسم «الفصول والغايات»، جمعا للفصل بمعنى فقرة في فكرة واحدة ومضمون واحد، وجمعا للغاية، أي نهاية أو خاتمة، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر..

ولا ريب ان الكتاب يضيف إلينا كل جديد من ذكر أبي العلاء، ويرسم لنا صورة واضحة لشخصيته ولمشاعره في هذه الفترة الحافلة بالمعاناة من حياة أبي العلاء.

وهو يمدنا بالكثير من المعارف عن أبي العلاء، وفلسفته.

إلى ما فيه من ثروة أدبية ولغوية لا تقدر بقيمة.

اننا لمدينون لهذه الفرصة الطيبة التي التقى فيها محب الدين الخطيب بورّاق في مكة المكرمة، ليعثر على هذا الجزء من كتاب كان مفقوداً لشيخ المعرة، وليصبح الكتاب بعد فترة في أيدي قراء العربية، يقرأون فيه حكمة المعري وفلسفته، وما يحمله الكتاب من نظرات المعري في الحياة والناس، ومن اقباله على الزهد والوئام الروحي والنفسي مع كل مبدعات الخالق الأعظم في الكون والوجود والطبيعة.

ديوان شعر الوزير الفاطمي

طلائع بن رُزِّيْك

- ١ -

نحن مع ديوان شعر الصالح طلائع رئيس وزراء مصر في العصر الفاطمي (٤٩٥ - ٥٥٦ هـ/ ١٠٠٢ - ١١٦١ م) وهو من هو في خدمة الدولة والخلافة، مما صعد به إلى عرش رياسة الوزارة عام ٥٤٩ هـ، وظل حاكماً لمصر بأمره حتى مات مقتولاً عام ٥٥٦ هـ.

وابن رزيك - بضم الراء وتشديد الياء مع فتحها - ينتمي إلى الغساسنة، وقد ولد بأرمينية، من أسرة تعمل في التجارة. ومع اهتمام والده بتربيته تربية عالية، كان يساعد أباه في أعماله التجارية مما وسع من أفقه وزاد من تجاربه وخبرته بالحياة، ومع رحلاته الكثيرة إلى مختلف الجامعات ومراكز العلم الاسلامية في الشام والعراق وغيرهما: ازداد خبرة بالحياة والناس والمجتمع الاسلامي في عصره.

وقادته خطاه إلى مصر مركز الخلافة الفاطمية، وباخلاصه لآل البيت، ومواهبه الفائقة، نال وظيفة مناسبة، أظهر فيها اخلاصاً لمصر وللخلافة الفاطمية، مما قربه من قصر الخلافة، ومما أكسبه حسد أقرانه وحقدهم، فاستصدروا من القصر مرسوماً بتعيين «طلائع» والياً على قوص، ثم بعد ذلك نقل والياً على أسوان، ثم نقل والياً على «منية الخصيب».

وفي مؤامرة سياسية قتل أحد قواد الخلافة الخليفة الظافر الفاطمي، فبعث

القصر إلى الصالح طلائع يستقدمه لينقذ العرش والبلاد، فدخل «طلائع» إلى القاهرة بقوات كبيرة، واستولى على الأمور فيها عام ٥٤٩ هـ وأعلن نفسه رئيساً لوزراء مصر، ثم ملكاً على البلاد بجوار الخليفة الفاطمي وذلك في التاسع عشر من ربيع الأول من العام نفسه.. وولى طلائع «الفائز» وهو في الخامسة من عمره على عرش الخلافة، واستبد هو بكل الأمور حيث وضعها في يده وحده.

وبدأ بعقاب المتآمرين وأعوانهم، وتطهير الادارة من أذنابهم. ثم وجه همته نحو تقوية الجيش والأسطول، وبعث بقوات مصرية ضخمة إلى الشام لحرب الصليبيين، وانتصر عليهم انتصارات كبيرة ومدوية.

ثم رفع الصالح «طلائع» عجلة الاصلاح في الداخل والخارج بقوة وعزم.

وفجأة مات الفائز ورشح «طلائع» مكانه على عرش الخلافة «العاضد» وبعد قليل زوجه من ابنته، ليصبح بعد حين خلفاء مصر من ذريته.

الا أن استبداده بالخلافة كان سبباً من أسباب غضب القصر عليه، وقتله في مؤامرة من مؤامرات السياسة عام ٥٥٦ هـ وذلك يوم الاثنين التاسع عشر من رمضان من العام نفسه، وفي مقتله قال عماد الدين الاصفهاني (٥٩٧ هـ): «بموته - طلائع - انكسفت شمس الفضائل الزاهرة» ورثاه جميع الشعراء بمراث بليغة خلدت على وجه الزمان..

- ٢ -

لم يكن «طلائع» سياسياً ورجل حرب فحسب، بل كان أديباً بليغاً، وعالماً جليلاً كما كان شاعراً موهوباً، ترك لنا ديوان شعر حافلاً بمختلف القصائد السياسية والوجدانية، والقصائد التي قيلت في الحرب ووصف المعارك، والقصائد المذهبية التي نظمها في الخلافة، وبكاء شهدائهم، ومدح أئمتهم وخلفائهم، وغير ذلك من مختلف الأغراض.

والديوان كبير، ويروى أنه كان في مجلدين، إلا أنه يعد مفقوداً. وقد نهض د. أحمد بدوي بجمع الديوان ونشره عام ١٩٥٨، حيث طبع في مطبعة

الرسالة بالقاهرة في نحو ست عشرة ومائة صفحة تشمل على أكثر من ستمائة بيت في مختلف الأغراض.

ثم قام بجمع الديوان الاستاذ الأميني العراقي عام ١٩٦٤، وطبع في النجف الأشرف مشتملاً على نحو ألفي بيت من الشعر.

- ٣ -

ومن شعر طلائع في مدح الامام علي كرم الله وجهه:

كأني إذ جعلت إليك قصدي   قعدت الركن في البيت الحرام
وخيل لي بأني في مقامي   لديه بين زمزم والمقام
أيا مولاي ذكرك في قعودي   ويا مولاي ذكرك في قيامي
وأنت إذا انتبهت سمير فكري   كذلك أنت أنسي في منامي

ومن شعره السياسي:

تقول ولكن اين من يتفهم   ويعلم وجه الرأي، والرأي مبهم
ويأكل من قاس الأمور وساسها   يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلداً   وما أحد مما قضى الله يسلم

وفي جيش مصر وانتصاراته على الصليبيين يقول «طلائع»:

خيول إذا ما فارقت مصر تبتغي   عداها، لها النصر المبين ملازم
يسير بها «ضرغام» في كل مأزق   ولا يصحب الضرغام الا الضراغم

وفي استشهاد الحسين يقول:

خاب الذي أضحى الحسين   بطول شقوته صريعه
أفذاك يرجو أن يكون   محمد أبداً شفيعه؟
عجباً لمغرورين ضيع   قومهم بهم الوديعه
ولأمة كانت إلى   ما شاء خائنها سريعه
فغدت بحق نبيها   في حفظ عشرتها مضيعه

وهكذا نجد شعر طلائع شعراً عذباً بليغاً، مؤثراً، قوي العاطفة، ملتهب الشعور، صادق التصوير، رائع التعبير انه شعر الوجدان الحاد والتجربة العميقة، والاحساس المرهف.

إن شعر «طلائع» يمثل الروح المصرية في أصالتها وجلالها، ويمثل طبيعة مصر المجلوة في سحرها وجمالها، ويمثل شعب مصر في شموخه وصموده. وما أحرانا بأن نقرأ شعره العذب الرقراق، ذا الموسيقى الحلوة المتجاوبة النغم واللحن، والنبرات العذاب.

- ٤ -

ومن حسن الحظ ان يكتب باحث رسالة للحصول على الماجستير في الأدب من جامعة الأزهر عن «الصالح طلائع.. شاعراً»، وهو الاستاذ عبد الجواد أحمد محمد أحمد، وهي رسالة تستحق كل تقدير ورعاية، ويا حبذا لو طبعت إذن لكانت تخليداً لذكرى شاعر عظيم، ترنم بشعره في وادينا الخصيب وسارت الرواة به في كل مكان وحملت أخبار شعره وشاعريته الكتب إلى كل جيل وكل عصر، رحمه الله.

طبقات الأدباء

لإبن الأنباري

- لفظة أدب ومعناها في عصر ابن الأنباري
- المدارس الأدبية في طبقات الأدباء
- المدرسة المصرية في النحو وأبرز رجالها

بين يدي كتاب «نزهة الالباء في طبقات الادباء» لإمام العربية وأديبها ابي البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى (٥١٣ - ٥٧٧ هـ/ ١١١٩ - ١١٨٢ م) وهو كتاب يعد أصلاً من أصول كتاب مشهور في «طبقات الأدباء» الفه ياقوت الرومي المتوفي (عام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) وسماه «معجم الأدباء» فوق ما له من أهمية كبيرة في الترجمة لطائفة كبيرة من علماء العربية وائمتها وأدبائها حتى نهاية القرن الخامس الهجري.

والكتاب نشره علي يوسف دون تحقيق أو تعليق، فوق ما اشتمل عليه من تحريف كثير، وهو بحق جدير باهتمام الأدباء لتحقيقه، ونشره نشراً علمياً سليماً.

وعبد الرحمن بن محمد الانبارى علم من أعلام العربية وآدابها في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وكانت نشأته في بغداد، ودرس في المدرسة النظامية، وتلقى ثقافته في اللغة والأدب على أيدي أعلام الأساتذة في النظامية، من مثل الجواليقي، وابن الشجري، وغيرهما.. وتفوق في علوم الأدب واللغة وصارت له حلقة علمية في النظامية، وتتلمذ عليه جيل كبير من

العلماء، وكان على جانب كبير من الخلق الرفيع والدين القوي وانقطع للعبادة في أخريات حياته..

وله مؤلفات كثيرة، من أشهرها: أسرار العربية، والميزان، وطبقات الأدباء الذي نتحدث عنه في هذه الدراسة، والذي ترجم فيه لاعلام العربية حتى عصره.

وكان علم الطبقات موضع إهتمام الباحثين والدارسين آنذاك، فكتب علماء العربية في طبقات الصحابة، وطبقات التابعين، وكتب أبو نعيم في طبقات الأولياء، وكتب السلمي في طبقات الشافعية وإبن صاعد في طبقات الأمم والمجريطي في طبقات الفلاسفة، والقفطي في طبقات الحكماء، ومن قبل كتب ابن سلام الجمحي وإبن المعتز في طبقات الشعراء كما كتبوا عن طبقات المحدثين والمفسرين والرواد والحفاظ، والنحاة، والاصوليين، وكتبوا في طبقات المعتزلة وطبقات الشافعية، والمالكية، والحنفيةوالحنابلة، وغير ذلك. وللسيوطى بعد ذلك كتاب الطبقات الكبرى، وكتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة».

ولفظة «أدب» آنذاك - في عصر إبن الأنبارى - كانت تطلق على ثقافات علوم العربية وبخاصة علوم اللغة والنحو، وكان علماء العربية آنذاك يجمعون في تحصيلهم العلمي شتى المعارف اللغوية والنحوية والأدبية.. فوق ثقافتهم الأدبية، وكان الأدب مرادفاً للفظة الثقافة ومن أهم ثقافات الأديب علوم اللغة والنحو والصرف، ومن ثم جاء تعريف جديد للأدب بعد عصر إبن الانبارى يقول: إن الأدب هو الأخذ من كل فن بطرف.

- ٢ -

وفي الكتاب يتحدث المؤلف عن أول من وضع علم العربية، ذاهباً إلى أنه الإمام علي بن أبي طالب، وإن أبا الأسود الدؤلي أخذه عنه.

ثم يتحدث عن أشهر علماء العربية في القرن الأول والثاني والثالث والرابع

والخامس، بصريين وكوفيين وبغداديين، ومدرسة البصرة كان من أعلامها نصر بن عاصم وعبد الله بن أبي اسحاق (١١٧ هـ)، ويحيى بن يعمر (١٢٩ هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ)، ويونس (١٨٢ هـ)، والخليل بن أحمد (١٧٠ هـ) وسيبويه (١٨٨ هـ)، والمازني (٢٤٧ هـ) والمبرد (٢٨٥ هـ).

ومن أعلام مدرسة الكوفة: معاذالهراء (١٨٧ هـ)، والكسائي (١٨٩ هـ)، والفراء (٢٠٧ هـ)، وثعلب (٢٩١ هـ)، وسواهم.

ومن أعلام المذهب البغدادي: الزجاج (٣١٠ هـ)، وإبن السراج (٣١٦ هـ)، والزجاجي (٣٣٧ هـ)، وإبن كيسان (٢٩٩ هـ)، وإبن درستويه (٣٤٧ هـ)، ونفطويه (٣٢٣ هـ) والاخفش الصغير (٣١٥ هـ).

ثم تطور المذهب البغدادي في النحو من مذهب متأثر بالمدرستين البصرية والكوفية الى مذهب مستقل، يبحث في مسائل اللغة والنحو باستقلال تام، ومن أعلامه: السيرافى (٣٦٩ هـ)، وإبن خالويه (٣٧٠ هـ)، وأبو علي الفارسي (٣٧٧ هـ)، والرماني (٣٨٨ هـ)، وإبن جني (٣٩٢ هـ)، والتبريزي (٥٠٢ هـ) والزمخشري (٥٣٧ هـ) وإبن الشجري (٥٤٢ هـ)، وإبن الخشاب (٥٦٧ هـ)، والمطرزي (٦١٠ هـ) وغيرهم.

وكانت هناك مدرسة مصرية في النحو، من أشهر علمائها: أبو جعفر النحاس (٣٢٧ هـ)، وابن بابشاذ (٦٩ هـ) وابن برى (٥٨٢ هـ).

كما كان هناك مدرسة أندلسية ومغربية من أشهر أعلامها: الزبيدى (٣٧٩ هـ) وهو مؤلف كتاب «طبقات النحويين واللغويين»، والأعلم الشنتمرى (٤٧٦ هـ) وابن السيد البطليوس (٥٢١ هـ)، وإبن مضاء الأندلسي القرطبي (٥٩٢ هـ) والسهيلى، وغيرهم.

وصاحبنا يترجم للكثير من علماء هذه المدارس، وممن ترجم لهم: حماد الراوية (١٥٦ هـ) وخلف الاحمر (١٨٢ هـ)، وأبو نواس (١٩٨ هـ)، وابو زيد الانصاري (٢١٥ هـ)، وأبو عبيدة (٢٠٨ هـ) وأبو تمام (٢٣١ هـ)

وإبـن سلام (٢٣١ هـ) وإسحـاق الموصلي (٢٤٠ هـ)، وعمارة بـن عقيـل (٢٤٠ هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ)، وعبد الله بن المعتز (٢٩٦ هـ)، وأبو جعفـر الطبري (٣١٠ هـ) والمعـري (٤٤٩ هـ)، والثعـالبي، (٤٢٩ هـ) وسواهم.. وهؤلاء ليسوا من علماء اللغة والنحو بل هم شعراء وأدباء ومفسرون.. وممن ترجم لهم فضلاً عن أعلام مدارس النحو:

ابن طباطبا (٣٢١ هـ)، والحريري البصري (٢٣١ هـ): كان من جملة أهل الأدب، وألّف كتاباً في «طبقات الشعراء» وكان له علم بالشعر والاخبار، وهما من جملة علوم الأدب.

ويقول عن حماد الراوية (١٥٤ هـ) كان لا يعرف كبير شيء في النحو، وإنما كان مشهوراً برواية الاشعار والأخبار ص٢٨ من الكتاب.

ويروي إبن الأنبارى عن يونس بن حبيب أنه كان يقول: لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كله في العربية، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك الا النبي (ﷺ).

ويروي خلاد بن يزيد عن يونس، قال: ثلاثة والله اشتهى أن أمكن من مناظرتهم:

آدم عليه السلام وأقول له: قد مكنك الله تعالى من الجنة وحرم عليك الشجرة فقصرتها حتى طرحتنا في هذا المكروه، ويوسف عليه السلام فأقول له: كنت بمصر وأبوك يعقوب بكنعان وبينك وبينه عشر مراحل، يبكي عليك حتى ابيضت عيناه من الحزن، ولم ترسل اليه أني في عافية وتريحه مما كان فيه. وطلحة والزبير أقول لهما: إن علي بن أبي طالب بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق، فأي شيء أحدث؟

ويقول عن هشام الكلبي: كان عالماً بالنسب وهو أحد علوم الأدب، فلهذا ذكرناه في جملة الادباء، فإن علوم الأدب ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابهم.

وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما، وهما علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو على حد أصول الفقه ـ ص ٦١ من الكتاب ـ

ـ ٣ ـ

وللكتاب دلالته الخطيرة على نمو الثقافة الأدبية في عصر مؤلفه، وإتساعها لتشمل جميع علوم الادب من نحو وصرف ولغة وعروض وشعر وأخبار ورواية أنساب وغيرها.

فضلاً عن أهمية ترجمته لأعلام الأدباء في أكثر من ثلاثة قرون، مع تعدد المدارس والتيارات والمذاهب.

إلى ما اشتمل عليه الكتاب من طرائف الروايات التي وردت في تراجمه للاعلام.

ثم أن الكتاب مع ذلك صورة للتطور الفكري في شتى الثقافات والمعارف وعلوم العربية. وإبن الانبارى، وهو أحد أعلام الأساتذة الذين تخرجوا في المدرسة النظامية في بغداد، والذين درسوا فيها، كان واسع الثقافة، محيطاً بضروب كثيرة من ثقافات عصره.

لذلك كان كتابه جديراً بكل التقدير، لانه كان مثالاً حياً لصورة الأدب ومعالمه ومناهجه المتعددة..

وكان الكتاب مصدراً لياقوت في «معجم الأدباء» وللسيوطي في بغية الوعاة، ولعدد كبير من المؤلفين والدارسين.

وقد لقي الكتاب على مختلف العصور تقدير العلماء والأدباء، وكل الباحثين.

ولا ريب أن المؤلف تأثر في كتابته بكل ما كتب عن علماء العربية، من مثل كتاب طبقات النحويين البصريين للسيرافى وغيره.

والكتاب حري بكل العناية، جدير بكل الاهتمام والتقدير.



جنّة الورد

للسعدى الشيرازى

- ١ -

كلستان أو جنة الورد أو حديقة الورد أشهر كتب الأدب الفارسي، وأكثرها تداولاً حتى اليوم، طبع طبعات كثيرة، وترجم إلى سائر اللغات الحية في الشرق والغرب.. ومؤلفه الشاعر الصوفي الأكبر السعدى الشيرازى.

وبين يدي الترجمة العربية لهذا الكتاب، التي قام بها أستاذ مصري قدير، هو الدكتور أمين عبد المجيد بدوي، أستاذ الأدب الفارسي في جامعة القاهرة سابقاً، وهو من منشورات المركز العبري للصحافة بالقاهرة، وقد صدر في طبعة أنيقة، تستحق فعلاً الحمد والثناء.

وقد بدأ الدكتور المترجم ترجمته للكتاب منذ أكثر من ثلث قرن، وأتمها عام ١٩٥٠، ثم أعاد تهذيبها عام ١٩٥٢. ولم يأذن الله بطبع هذا السفر إلاّ هذه الأيام.

إن شهرة «كلستان» رفعته إلى مصاف التراث العالمي، والأدب الإنساني الرفيع، وهو مثل آثار شكسبير في عالميتها، ويراه أدباء الفرس آية في البلاغة والفصاحة، ويتخذونه دستوراً أدبياً وأخلاقياً، وفي لغتهم الأصلية حكايات منثورة وبعضها منظوم، وفي ثناياها شعر فارسي وعربي، وقد قصد مؤلفه منه الى غرضين! الأول أدبي تعليمي، والثاني أخلاقي عملي، في أسلوب قصصي رفيع، فلقد صاغه السعدي - كما يقول - في أسلوب ينفع المتكلمين، ويزيد

بلاغة المترسلين. ويعده الفرس المثل الأعلى للاسلوب الأدبي الرفيع، ويعتمدون عليه في تربية النشء بما حوى من حكم ومثل أخلاقية عالية، وهو عندهم أقوم كتب التربية بالقصص.

ألف السعدي الشيرازي الكتاب عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، عام سقوط بغداد في أيدي التتار، بعد أن طوف في بلاد الدنيا، وخالط الناس من شتى الأجناس والطبقات، وذاق من الأيام حلوها ومرها. والسعدي فيه داعية إصلاح، ويتجاوز في بعض المواقف أفق الوطنية والعقيدة إلى أفق الإنسانية الفسيح.

وقد ذاعت شهرة الكتاب في الأدب التركي، وعند المستشرقين، وظهرت أول ترجمة له في أوروبا بالفرنسية عام ١٦٣٤ م. ثم ظهرت ترجمة لاتينية له عام ١٦٥١ م، وترجمة هولاندية في نفس العام.. ثم ترجم الكتاب إلى الانجليزية عام ١٧٧٤ م، وإلى الروسية عام ١٨٨٢ م.

وأول ترجمة عربية للكتاب كانت ترجمة سقيمة صدرت عام ١٩٢١ للخواجا جبرائيل بن يوسف الشهير بالمخلع.. وثاني ترجمة له هي هذه الترجمة التي ظل الدكتور بدوي ينقح فيها ثلث قرن حتى صدرت منذ قليل.

أما السعدي الشيرازي صاحب «كلستان» فهو من أشهر الأدباء والشعراء الفرس، وقد عاش نحو مائة (عام ٥٩٥ - ٦٩٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢٩١ م)، مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره، وتلقى ثقافته في الدين والأدب والشعر والتصوف، وجاب البلاد، وكانت بغداد أول مقاصده، حيث أتم في المدرسة النظامية، دراسته، والتقى فيها قبل نكبتها بعلماء بغداد وأدبائها وشعرائها. وتأثر بأستاذين جليلين له هما: شهاب الدين السهروردي الصوفي، وأبو الفرج الجوزي..

طاف السعدي بالعالم الإسلامي عن طريق بلخ وغزتين والبنجاب إلى كجرات ودهلى، حيث التقى فيها بالأمير خسرو الشاعر، وهناك تعلم الهندوستانية والاوردية، ثم رحل إلى اليمن والحبشة، والحجاز، حيث أدى

فريضة الحج، وذهب إلى الشام، حيث زار دمشق، وبيت المقدس، وأسره الصليبيون في طرابلس، ثم ذهب إلى حلب، فمصر، وشمال أفريقيا، وبلاد المغرب، ثم طوف في بلاد آسيا الصغرى، والتقى في قونية بجلال الدين الرومي.. ثم رجع إلى شيراز حيث عكف في موطنه على التأليف وقرض الشعر وكتابة الرسائل والتأملات الصوفية.

- ٢ -

وكتاب «كلستان» حكايات أخلاقية صوفية، صيغت في أسلوب نثري مسجوع، تتخلله أبيات وقطع شعرية وبعض أبيات عربية.

والكتاب بعد المقدمة ثمانية أبواب!

الأول: في سيرة الملوك

والثاني: في أخلاق الدراويش

والثالث: في فضيلة القناعة

والرابع: في فوائد الصمت

والخامس: في العشق والشباب

والسادس: في الضعف والشيخوخة

والسابع: في تأثير التربية

والثامن: في آداب الصحبة

ويقول السعدي في سبب تأليف الكتاب: «ذات ليلة كنت أتأمل الأيام الخالية، وآسف على العمر التالف، وأثقب حجر دومرة القلب بماس الدمع، وأقول هذه الأبيات المناسبة لحالي.. ويذكر السعدي أبياتاً عديدة هنا في هذا المقام، ثم يقول: وبعد تأمل هذا المعنى رأيت المصلحة أن أجلس في مجلس العزلة، وألم ذيلي من الصحبة، وأغسل الدفتر من لغو الاحاديث، حتى دخل

صديق كان في الهودج انيسي، وبالحجرة جليسي، ومهما أبدى السرور والملاعبة لم أجبه، ولم أرفع رأسي عن ركبتي في جلسة تعبدي، فتألم، فأطلعه أحد اتباعي على جلية الأمر، قائلاً: إن فلاناً قد عزم على أن يعتكف بقية العمر، ويؤثر الصمت، وانت أيضاً إن استطعت أمض لطيتك، فقال: بالعزة العظيمة، والصحبة القديمة، لا أصعد نفساً، ولا أرفع قدماً، ما لم يتكلم على عادته المألوفة، وطريقته المعروفة. واتفق لي مبيت الليل في البستان، مع أحد الخلاق، فقال: ما الطريق والرأي؟ قلت: لأجل نزهة الناظرين، وفسحة الحاضرين، أستطيع تصنيف كتاب «جنة الورد» كلستان، واتفق لي في تلك الأيام القليلة، تبييض بعض فصول في حسن المعاشرة، في عبارة تنفع المتكلمين، وتزيد بلاغة المترسلين، وفي الجملة، كانت لا تزال هناك بقية بقيت من ورد البستان، عندما تم كتاب «كلستان» ويكون التمام حقاً إذ يلقى الرضا في حضرة الملك، سعد بن أتابك الأعظم». وانتهى السعدى من كتابه عام ٦٥٦ هـ.

- ٣ -

وهذه إحدى قطع الكتاب القصصية الجميلة، يقول السعدي: «كان يأخذ الملوك مرض هائل، واتفقت طائفة من حكماء اليونان على أنه ليس لهذا الداء دواء، الا مرارة آدمي يتصف بعدة صفات، فأمر الملك بأن يطلبوه، فوجدوه إبن قروي بتلك الصفة التي ذكرها الحكماء، فاستدعوا أبويه وأرضوهما بنعم لا حد لها، وكتب القاضي أيضاً فتوى بأنه يجوز إراقة دم واحد من آحاد الرعايا من أجل سلامة الملك، فقصد الجلاد قتله، فوجه الفتى وجهه نحو السماء مبتسماً وكان يتمتم بشيء، فسأله الملك: ما موضع الضحك في هذه الحالة؟ قال الفتى: لان دلال الولد على الوالدين، والدعوة ترفع أمام القاضي، والعدل يطلب من الملك، والآن قد أسلمني أبواي للقتل بسبب حطام الدنيا، وأفتى القاضي بقتلي ويرى السلطان مصالحه في هلاكي، لا وزر لي الآن غير الله عز وجل عند من أستغيث من حولك وقوتك، عندك أنت أيضاً أطلب الانصاف من قدرتك. فانقبض قلب السلطان من كلامه وجال الدمع في

عينيه، وقال: إن هلاكي أولى من إراقة دم بريء كهذا، وقبل رأسه وعينيه واحتضنه وأنعم عليه بنعم لا حد لها، وأطلقه.. وحكي أن الملك شفي في نفس الاسبوع.. وما زلت أفكر في ذلك البيت الذي قاله فيال على شاطىء النيل، آه إن حال النملة تحت قدمك ـ لو تعلم ـ مثل حالك تحت قدم الفيل..

وفي الكتاب أثر مصر واضحاً كما نرى، وكما يظهر في فصول الكتاب:

ـ من مثل حكاية هارون الرشيد وولاية مصر.

ـ الوزير وذو النون المصري.

ـ عام القحط في الاسكندرية.

ـ وغير ذلك.

ومن حكم الكتاب الكثيرة:

ـ الحكيم الذي يخاصم الجهال يجب ألا يتوقع العزة، وإذا تغلّب جاهل على حكيم بقوة اللسان والوقاحة فلا عجب، فرب حجر يكسر جوهراً.

ـ العندليب الذي يكون الغراب رفيقه في القفص لا عجب إذا احتبس نفسه.

ـ هيىء أسباب القول، ثم تكلم حين تعرف أن الكلام يجدي.

ـ ثلاثة أشياء لا تدوم بغير ثلاثة: المال بغير التجارة، والعلم بغير البحث، والملك بغير السياسة.

ـ مع الجوع لا تبقى قوة العفاف إلى غير ذلك.

إن الدكتور بدوي الذي نعرفه من قبل في كتبه: «القصة في الأدب الفارسي» وتاريخ بخاري، والأمير بختيار، وشاهنامة الفردوس، وغيرها، تزيدنا معرفة به ترجمته لهذا الكتاب «كلستان».. هذه الترجمة الرائعة، البليغة العبارة، والبديعة الأسلوب.

ولا ريب أن ترجمة « كلستان » عمل كبير، يثري أدبنا العربي، ويقدم للمثقفين العرب زاداً من الآداب العالمية. وما أحوجنا إلى ترجمة روائع التراث العالمي، لتزداد بها اللغة العربية ثراء ومقدرة ومجداً.

ديوان مثنوى

لجلال الدين الرومي

- ١ -

جلال الدين محمد البلخي الرومي من أشهر شعراء التصوف والوجدان الروحي في الأدب العربي (٦٠٤ - ٦٧٣ هـ/ ١٢٠٨ - ١٢٧٣ م).

وفي هذا العام - الميلادي، عام ١٩٨٣ - يكون قد مضى على ميلاد جلال الدين خمسة وسبعون وسبعمائة عام ميلادي، وهي ذكرى ننوه بها في هذا المقام.

ولد جلال الدين في بلخ في السادس من ربيع الاول عام ٦٠٤ هـ كما هو مشهور، ومن المأثور أن والده بهاء الدين التقى عام ٦٠٩ هـ بالشيخ فريد الدين العطار في بغداد، وأهدى العطار في هذا اللقاء إلى جلال الدين محمد نجل بهاء الدين كتابه «أسرار نامة»، وكان عمر جلال الدين آنذاك أربعة عشر عاماً، مما يدل على ان ميلاد جلال الدين كان عام (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م) لا عام (٦٠٤ هـ/١٢٠٨ م).

ومهما كان، فإن جلال الدين نشأ في بيت مشهور بالورع والتقوى والزهد، وأبوه بهاء الدين محمد بن حسين الخطيب كان عالماً زاهداً وصوفياً ورعاً، يقال: إن أمه كانت بنت علاء الدين محمد عم السلطان محمود سلطان خوارزمشاه ويقال كذلك: إن نسبه ينتهي إلى إبراهيم بن أدهم الزاهد الصوفي المشهور « - ١٦١ هـ».

نشأ جلال الدين في بلخ، ثم رحل في سن الرابعة عشرة من عمره مع والده من موطنه إلى مكة المكرمة لإداء فريضة الحج، ومنها سافر إلى الشام حيث التقى في دمشق بمحيي الدين بن عربي، وبغيره من العلماء ثم سافر إلى قونية بآسيا الصغرى، فأقام فيها، وظل مقيماً بها طيلة حياته حتى لاقى ربه، وبسبب حياته الطويلة فيها لقب بالرومي، إذ كانت «قونية» من بلاد الأناضول التي كانت تعرف ببلاد الروم.

وفي عام (٦٣٨ هـ/ ١٢٣١ م) توفي والده بهاء الدين في قونية.

وكان جلال الدين على خلق رفيع، ودين قويم، وعلم غزير، إذ كان قد درس على يدي والده ثم على علماء عصره، الذين أخذ عنهم علوم الشريعة والدين والتصوف وعلوم اللغة، وكان من بين شيوخه: برهان الدين الترمذي، وشمس الدين التبريزي، وفريد الدين العطار، وسواهم.

وفي قونية شهر جلال الدين بالتقوى والصلاح والزهد والورع، وكثر تلاميذه ومريدوه، وقام مقام والده في الوعظ والإفادة والتدريس، وأصبح صاحب طريقة روحية كبيرة..

وفي قونية توفي جلال الدين في الخامس من جمادى الثانية من عام ٦٧٣ هـ، وترك آثاراً كثيرة، في مقدمتها: المثنوي، وكليات أو ديوان شمس الذي يشتمل على نحو ثلاثين ألف بيت من الشعر، وله رباعيات مطبوعة، ومجموعة تقريراته، ورسائله لمعاصريه، والمجالس السبعة في المواعظ. وسواها.

- ٢ -

نظم جلال الدين ديوانه المشهور «المثنوي» في قونية في الفترة ما بين عامي ٦٥٩ هـ و٦٦٩ هـ، وما لبث هذا الديوان أن طارت شهرته في كل مكان..

ويحتوى «المثنوي» على نحو ستة وعشرين الف بيت من الشعر بالفارسية. وقد قام الشاعر الكبير عبد العزيز صاحب الجواهر بنقله من الفارسية إلى

العربية شعراً في ستة أجزاء كبار.. ويقول المترجم في مقدمته لهذه الترجمة ما نصه:

« من حسن التوفيق أني منذ عنفواني في العراق، وقبل زهاء أربعين سنة، كنت مغرماً بترجمة « المثنوي » كغرام الهزار بالجلنار، أدور حوله وأرجع منه البيت والبيتين. بالترجيع العربي الطلق، ووصولاً لضالتي المنشودة، قرأت على أستاذ فارسي نبذاً من شرح الحكيم « ملاهادي » على بعض غوامض أبياته، وترجمت أبياتاً معدودة منه إلى النظم العربي - ثم نزحت من العراق إلى إيران، وتغيرت روحي وبلادي، وانمحت من خاطري الأبيات المترجمة المعدودة برمتها، سوى ترجمة البيت الثالث لأول قافية في الدفتر الاول منه، وهو:

ابتغي صدراً تشظى بالنوى لابث شرح آلام الهوى

ولكن ما زال حب الترجمة له كامناً في روحي، زهاء عشرين سنة صادف في انتهائها خروجي من طهران إلى كرمانشاه، فمكثت فيها ست سنوات، فتحركت فيّ فواعل الترجمة، لا عن اختيار، بالاسلوب الحر من قيود القوافي، مقتفياً وزن المثنوي، على البحر المتقارب ».

- ٣ -

صدر المترجم ترجمته للمثنوي بابيات يأسف فيها على ما ضاع من عمره في غير الحياة الروحية، ومن هذه الأبيات:

فوا لهفي على الأيام قد ضاعت ضياع الريح في البيداء من عمري
فأين الوصل من ليلى وشيرين؟ هما قد احكما الميثاق في هجري

وفي مقدمة المثنوي لجلال الدين الرومي إنه - اي هذا الديوان - قد اشتمل على الغرائب والنوادر وغرر المقالات، ودرر الدلالات، على طريقة الزهاد، حديقة العباد، قصيرة المباني. كثيرة المعاني.

فإذا نظرنا في الترجمة وجدناها تنطق عن بلاغة باهرة، وشاعرية رائعة موهوبة نادرة.

ويقع الجزء الأول في ٨٤٢ صفحة، والثاني في ٨١٦ صفحة، والثالث في ٨٧٠ صفحة، والرابع في ٨٧٨ صفحة، والخامس في ٨٢١ صفحة، والسادس في ٩٧٨ صفحة ـ من القطع الكبير.

وهـذه الترجمة العـربيـة للمثنـوي مملـوءة بـالشروح الكثيرة المفيـدة، وبالتحقيقات الدقيقة الكبيرة الأهمية في فهم مرامي المثنوي ومضامينه ومعانيه الدقيقة.

والمترجم «عبد العزيز صاحب الجواهر» أو «عبد العزيز الجواهري»، شاعر أصيل، متمكن من اللغة والبيان والشعر والموسيقى الشعرية، وهو الأخ الأكبر للشاعر العراقي المشهور، محمد مهدي الجواهري، وهما من بيت اشتهر بالعلم والأدب والشعر.

والمترجم أيضاً شيخ قد أناف على الثمانين وإن كان يتمتع بحيوية الشباب وتدفقه، مما يبدو لنا في شاعريته وفي شعره الخصب العذب المتدفق، وقد استمعت اليه يلقي قصيدة من شعره، كان عنوانها «مصر أم النجوم»، ويصور فيها في بلاغة وتدفق، وجلال بيان، وعبقرية خيال، وحسن تصوير عواطفه ومشاعره المتدفقة الحية نحو أرض الكنانة.

وهذه القصيدة الرائعة هي من عيون الشعر، وإن كانت كبقية شعر عبد العزيز الجواهري الرفيع، ذي الموسيقى الحلوة والصور الشعرية الخلابة، والخيال الذهبي الرائع.

وهي تحاكي شعره الجميل الأصيل في ترجمة «المثنوي»، الذي نظمه جلال الدين الرومي، وصور فيه مواجيده. ومختلف مشاعره، ونزعات نفسه وعواطفه تصويراً دقيقاً، في بلاغة وجمال فصاحة، وحسن بيان، وحلاوة موسيقى.

وقد ترجم أيضاً شاعرنا عبد العزيز الجواهري فيما ترجمه إلى العربية ديوان

الشاعر الكبير شمس الدين محمد حافظ الشيرازي، شعراً عربياً أصيلاً، وتقع هذه الترجمة المطبوعة في جزءين كبيرين.

- ٤ -

وقد سمى المترجم ترجمته لديـوان جلال الدين الرومي « جواهر الآثار في ترجمة مثنوي مولانا خداوندكار، محمد جلال الدين البلخي الرومي شعراً ».

ولا ريب أن « المثنوي سواء في أصله الفارسي، أم في ترجمته العربية، ذي الستة الأجزاء، قد ترك آثاراً كبيرة، في العقل العربي، وفي الفكر الإسلامي.. وما زال يعد من روائع الآثار الانسانية الخالدة. وقد ذاع صداه في الشرق والغرب، وما زال معدوداً من أشهر كتب التراث الإسلامي الخالد.

لقد ألف أعلام كبار مثنويات، من مثل: السنائي، والعطار، وغيرهما. لكن « مثنوي » جلال الدين نال الشهرة الواسعة، ويقول جلال الدين فيه:

كان « العطار » روحاً، وسنائي له عيناً ونحن من بعدهما قد جئنا.

ثم يقول عن العطار:

بلغ العطار مدن العشق السبعة

ونحن لا نزال بعده في منعطف جادة.

وقد بلغ في شعره فيه مبلغاً قوياً، إذ امتلأ الديوان بأفكار روحية لطيفة، وصل بها إلى الغرض بجودة عبارته، ولطافة معانيه، ودقة مضمونه. وصفاء فكرته. ونضوج ذهنه الروحي، حتى لقد بلغ بالشعر الصوفي قمة ازدهاره. وكان جلال الدين يحسن انتقاء معانيه، كما كان يحسن اختيار ألفاظه وأساليبه وصوره الشعرية، وإن كان أكبر همه موجهاً نحو المعاني.

وإذا كان الفردوسي إماماً في الشعر الملحمي الحماسي، والخيام أستاذاً في فن الرباعيات الفلسفية، والانوري رائداً في القصائد الصوفية الطويلة، والسعدي إماماً في الغزل الالهي، وحافظ أستاذاً في الغزل الصوفي، فإن جلال

الدين كان إماماً لكل الشعراء الروحيين في أدبنا الاسلامي.

وقد بلغ أثره في آسيا الصغرى والهند وإيران مبلغاً كبيراً، وكانت له المنزلة الرفيعة على امتداد العصور. والفت شروح كثيرة للمثنوي، من مثل «جواهر الاسرار» لكمال الدين حسين الخوارزمي وشرح اسماعيل بن أحمد «وهو بالتركية».. وينقل شمس الدين أحمد الافلاكي في كتابه «مناقب العارفين» عن لسان جلال الدين الرومي إنه قال: «إن الله تعالى قد شمل أهل الروم بعناية عظيمة، لأن أهل هذه البلاد كانوا في غفلة عن عالم الحب الالهي، وعن التذوق الوجداني.. حتى كتب لنا مسبب الاسباب سبباً نقلنا به من خراسان إلى بلاد الروم، وجعل هذه الديار مأوى لأعقابنا.

وكان أهل قونية يعدون جلال الدين ساحراً لشدة تأثيره فيهم. وكان جلال الدين شخصية متميزة قل نظيرها، وقد صار إماماً روحياً للكثير من الناس في العالم الاسلامي.

- ٥ -

لقد كان جلال الدين عاشقاً والهاً، وشعره البالغ في جميع دواوينه نحو السبعين ألف بيت يمثل روحاً أحرقها لهب الوجد، وضرام الحب، ونار العشق.. مما كان له قوة التأثير، وروعة السحر.. ومما جعل من «المثنوي» كتاب فكر قبل أن يكون ديوان شعر.

وفي «المثنوي» لم يكن جلال الدين يميل إلى الأساليب القديمة في نظم الشعر، بل كان مولعاً بالأساليب الجديدة، والصور الخيالية المبتكرة، ونظم شعره على خمسة وخمسين بحراً مختلفاً من بحور الشعر المستعملة والمتروكة أيضاً، وقد منحته الموسيقى التي هي أساس الوزن القدرة على أن يتفنن في أوزان الشعر أكثر من أي شاعر آخر.

هذا وتطلق كلمة «مثنوي» عادة على الأشعار التي لشطري كل بيت منها قافية واحدة، وهي في مجموعها متماثلة الوزن مختلفة الروي. وقد كان هذا

اللون من الشعر موجوداً من أقدم العهود في اللغة الفارسية، نظم عليه الشعراء الفرس قصائدهم.

وقد كان السبب في نظم كتاب «المثنوي» أن حسام الدين الحلبي طلب من جلال الدين أن ينظم على وزن «حديقة الحقيقة» للسنائي، أو «منطق الطير» لفريد الدين العطار النيسابوري كتاباً يجمع أصول الطريقة، ويحوي أسرار المعرفة فشرع جلال الدين بناء على طلبه في نظم المثنوي وكان حسام الدين يجلس الليالي في مجلس جلال الدين يكتب ما ينظم، ويقرأ عليه ما كتب وكان النظم والكتابة والإنشاد تستمر إلى أن يظهر الفجر، ويطلع الصباح.

وجاء المثنوي كتاب حكمة وأخلاق وفلسفة وذوق وتربية ومعارف اجتماعية وفلسفية وذوق وتربية ومعارف إجتماعية وقصص رفيعة، وتبلغ حكاياته «٢٧٥ حكاية»، منها ٢٦٤ حكاية كان لها الاسبقية في الأدب الفارسي، وفي قصائد المثنوي تشعر دائماً بروح الحكيم والفيلسوف والعالم والزاهد والشاعر والمتيم الولهان.

وما في «المثنوي» من حقائق حية، وموضوعات وفيرة، ليس متخلفاً عن معارف الإنسان المعاصر ولا عن البشرية اليوم في مستواها الفكري، بل لا يزال يسبقها في الحقيقة الحية، في الأخلاق. وفي المعرفة وفهم الإنسان. والتوحيد. والمبادئ الإنسانية التي يجب أن تسود العالم المعاصر المحتضر.

إن «المثنوي لجلال الدين البلخي الرومي» سيبقى تراثاً حياً خالداً، وسيظل ذخراً للإنسان الذي خاطبه جلال الدين، ورمزاً للشرق وروحانيته العالية.. وما أصدق وأبدع ما يقوله جلال الدين لتلميذه حسام الدين الحلبي في «المثنوى»:

يا ضياء الحق، يا حسام الدين، أنت من بك جاوز «المثنوي» القمر بنورك.

وقد كان جلال الدين يشعر من أعماق نفسه بأنه بأشواقه الروحية، التي صورها في «المثنوي» يقود الإنسان إلى عصر جديد من الإبداع والتجديد والشموخ الروحي العظيم.

تاريخ الإسلام

للذهبي

- ١ -

صدر عن دار الكتاب اللبناني المصري، المجلد الاول من التاريخ الكبير المشهور المسمى «تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام»، الذي ألفه في مطالع القرن الثامن الهجري مؤرخ الاسلام ومحدث الشام، الامام الحافظ ابو عبدالله شمس الدين الذهبي. وهذا المجلد يعد كتابا مستقلا، حيث قصره المؤلف على المغازي النبوية.

والامام الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ/ ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م) ولد ونشأ وعاش في دمشق، وتلقى العلم على الشيوخ من اسرته، وعلى كبار شيوخ عصره، وقد ذكر جماعة منهم في خاتمة كتابه «تذكرة الحفاظ» ، وتتلمذ عليه طائفة من العلماء، منهم تاج الدين السبكى (٧٢٧ - ٧٧١ هـ) وغيره، وانصرف الى القراءة والتأليف والتدريس وتولى مشيخة دار الحديث بدمشق، وذاعت شهرته العملية في كل مكان، وشهد له معاصروه من شيوخه وتلاميذه بالنبوغ.

وجمعت الصداقة بينه وبين ابن تيمية الحراني (٦٦١- ٧٢٨ هـ)، ولما وقفت الجماهير موقفا خاصا من ابن تيمية كتب الذهبي الى صديقه ابن تيمية ناصحا ومشفقا رسالته «النصيحة الذهبية لابن تيمية».

ومن مؤلفاته: تاريخ الإسلام في ستة أجزاء، وقد نشرته في القاهرة مكتبة القدس عام ١٣٦٧ هـ، ويبدأ بالسيرة النبوية، تذكرة الحفاظ في أربعة

أجزاء، وقد طبع في حيدرآباد بالهند؛ دول الإسلام وقد طبع في حيدر آباد، ثم في القاهرة؛ ذيل العبر، وقد طبع في الكويت بتحقيق من محمد رشاد عبد المطلب؛ سير أعلام النبلاء، طبع منه ثلاثة اجزاء، العبر في خبر من غبر في خمسة أجزاء، وقد طبع في الكويت؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال في أربعة أجزاء وقد طبع في لكناهور بالهند، ثم في القاهرة.

- ٢ -

وكتاب «تاريخ الاسلام» للذهبي من أهم مؤلفاته وأعظمها وهو موسوعة كبرى في التاريخ الاسلامي، أرخ فيه الامام الذهبي للاسلام على مدى سبعة قرون من السنة الاولى من الهجرة الى تمام المائة السابعة، ورتبه على السنين والطبقات، وانتشر الكتاب وراج رواجا كبيرا، وقرأه عليه تلميذه صلاح الدين الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ).

وفاتحة كتاب «تاريخ الاسلام» في السيرة النبوية والمغازي والمجلد الاول منه هو في المغازي، والثاني في السيرة النبوية الشريفة.

وقد نهض الأستاذ محمد محمود حمدان بتحقيق كتاب المغازي ونشره لاول مرة عن نسخة كمبردج رقم ٢٩٢٦ وهي منسوخة عام ٨٤٥ هـ وتقع في ٢٣٨ ورقة، ونسخة مكتبة الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل بالرياض المنسوخة عام ١٢١٣ هـ، ونسخة الدكتور محمد حميد الله، ومصادر التحقيق وفيرة، وعمل المحقق عمل علمي جليل مشكور.

- ٣ -

ويعتمد الذهبي في المغازي على ابن اسحاق (٨٥ - ١٥١ هـ)، وموسى بن عقبة (- ١٤١ هـ)، والوادي (١٣٠ - ٢٠٧ هـ)، وعلى كثير من كتب التاريخ والمصادر الاسلامية الاولى في الطبقات وغيرها.

ويبدأ الجزء الأول من تاريخ الإسلام بتاريخ السنة الأولى من الهجرة، فالثانية، فالثالثة، فالرابعة الى تمام السنة العاشرة.

وهذا القسم خصصه الذهبي لمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمغازي وقعت بعد الهجرة، ومن ثم كان هذا القسم كله خاصا بمغازي رسول الله، صلوات الله عليه الا ما ندر من احداث وقعت في هذه السنوات العشر الحافلة الخالدة، لكنها على الجملة ترتبط بالمغازي برباط وثيق. ويقع هذا القسم في ٧٦٠ صفحة. والفهارس الموضوعة له تشمل اكثر من ١٦٠ صفحة منها، وتحتوي على فهارس للآيات القرآنية والاحاديث النبوية، والاعلام، ورجال الاسناد، والبلدان والامكنة، والأمم والقبائل، والغزوات والسرايا والبعوث، والوقائع، والايام، والاديان، والقصائد والاشعار والاراجيز، والكتب والموضوعات.

وتبلغ غزوات الرسول وسراياه ثلاثا وأربعين، كما يذكرها الذهبي.

ويبدأ الذهبي بتاريخ السنة الاولى من الهجرة بشهر ربيع الاول وهو شهر الهجرة النبوية من مكة الى المدينة، وفي السنة الثانية يبدأ بأحداث وقعت في ربيع الاول ايضاً، ومن السنة الثالثة يبدأ بأحداث المحرم، وكذلك في السنة الرابعة وما بعدها الى آخر الكتاب، ولعل السنتين الاوليين لم تقع فيهما أحداث في شهري المحرم وصفر.

ولكن الذهبي في اخبار مطلع السنة الحادية عشرة التي توفي فيها الرسول يذكر اخبار شهري المحرم وصفر ويقف عندهما ويقول في ختام هذا الجزء: ثم دخل شهر ربيع الاول؛ وبدخوله تكملت عشر سنين من التاريخ للهجرة النبوية، فهو لم يعتبر العشر السنين الاولى من تاريخ الاسلام بعد الهجرة تنتهي بنهاية السنة العاشرة، بل وصلها بشهري المحرم وصفر وهما مطلع السنة الحادية عشرة، ووقف عند شهر ربيع الاول الذي توفي فيه رسول الله صلوات الله عليه، وهو الذي وقعت فيه الهجرة النبوية أيضا.

ويقودنا ذلك الى ان الهجرة هي بداية التاريخ الاسلامي وقد حدثت في شهر ربيع الاول، ولكن بداية العام الهجري جعلت من المحرم لا من ربيع الاول الذي حدثت فيه الهجرة، ويرجع ذلك الى ان العام الهجري جعلت

بدايته من نهاية موسم الحج وبدء انصراف الحجاج من مكة والمدينة، وللحج عند العرب وعند المسلمين مكانة عظمى ومن ثم عادوا بالعام الهجري الى اول المحرم، ولم يجعلوا بدأه شهر ربيع الاول، اعتزازا بمكانة الحج وعظمة مشاعره، ولان المحرم شهر حرام تعظمه العرب جميعا وتحرم فيه القتال، ولانه كان بداية التفكير في الهجرة والاعداد لها.

- ٤ -

وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تكن عدوانا من المسلمين على غيرهم، انما كانت دفاعا عن النفس وعن حرية الانسان وحقوقه المشروعة في الحياة، فغزوة أحد والاحزاب مثلا هل يمكن عدها عدوانا من المسلمين، وجيوش المشركين جاءت الى المدينة مهاجمة لتدميرها، وللقضاء على المسلمين فيها؟

وغزوة فتح مكة هل يمكن عدها عدوانا من المسلمين، وقد نقضت قريش المواثيق والمعاهدة بينها وبين الرسول صلوات الله عليه من القبائل العربية؟

وغزوة الطائف هل يمكن عدها عدوانا وجميع خصوم الرسالة والرسول قد تجمعوا فيها وبدأوا يعدون جيشا ضخما لمهاجمة رسول الله والقضاء عليه.

غزوة الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة، وبنو لحيان من هذيل بأسرهم، قبيلة كاملة: تهاجم عشرة من صحابة رسول الله لا يملكون سلاحا، ولم يكونوا مهاجمين ومعتدين على أحد، ويقتلون، ويأسرون من يأسرون، ممن قتلوهم خبيب، الذي قال عند مقتله:

لقد جمع الاحزاب حولي والبوا	قبائلهم، واستجمعوا كل مجمع
فكلهم ابدى العداوة جاهدا	علي لأني في وثاق مضيق
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم	وقربت من جذع طويل ممنع
وقد خيروني الكفر، والموت دونه	وقد هملت عيناي عن غير مجزع
والله ما أرجو اذا مت مسلما	على اي جنب كان في الله مصرعي

وقتل بنو لحيان خبيبا غدرا وصلبوه على جذع نخلة طويل؛ فهل يمكن اعتبار المسلمين في هذه الغزوة كانوا معتدين على أحد، أو مهاجين لأحد وهم عشرة مسالمون، ساروا في الطريق، فأسرتهم بنو لحيان، ومثلت بهم شر تمثيل.

وغزوة بئر معونة مثلا ـ في السنة الرابعة ـ هل يمكن ان نعدها عدوانا من المسلمين أو من الرسول بينما كان عامر بن مالك ملاعب الالسنة المشرك يلح على رسول الله ان يبعث معه بعض المسلمين لدعوة قومه الى السلام، وتعهد بأن يحميهم، ففعل الرسول فسمع عامر بن الطفيل بجماعة المسلمين الذين قدموا الى نجد للدعوة للاسلام، فاستنفر القبائل، فتجمعت واجتمعوا على المسلمين فقتلوهم ببئر معونة، واستشهد المسلمون جيعا الا كعب بن يزيد من بني النجار، الذي جرح، وعاش حتى مات في غزوة الاحزاب.

وغزوة مؤتة لحدود الروم في الشام هل يمكن عدها عدوانا، مع ان الرسول صلوات الله عليه، كان قد بعث الحارث الأزدي سفيرا الى ملك بصرى بالشام، فقتله شرحبيل الغساني دون ماجريرة، فكانت غزوة تبوك بسبب ذلك.

وغزوة بدر لا يمكن عدها عدوانا والرسول يرى ان يهاجم قافلة تجارة لقريش، لان قريشا صادرت اموال المسلمين في مكة، وحرمتهم من اموالهم وديارهم وتجارتهم وكل ما يمتلكون، ولان قريشا خرجت الى بدر مهاجة معتدية، حتى اذا انتصرت في بدر سارت الى المدينة تهاجمها وتقضي على المسلمين فيها...

الغزوات النبوية كلها كانت دفاعا عن النفس والعقيدة ولم تكن عدوانا على أحد، ولم تكن مبادأة الحرب، ولم تكن رغبة في شيء من أغراض الدنيا..

ويقص الذهبي قصة هذه الغزوات كلها سنة بعد سنة فالسنة الاولى بعد الهجرة لم تقع فيها غزوات، انما كانت سنة الهجرة، وبناء المسجد الشريف، وفي السنة الثانية تقع غزوة الأبواء، وبدر الاولى ثم غزوة بدر الكبرى وغزوة السويق، وغيرها.

وفي السنة الثالثة تقع غزوة بني قينقاع، لان اليهود عبثوا بعرض عربية، فدافع عنها مسلم فقتلوه، فغضب المسلمون، وحاصروا اليهود من بنى النضير في السنة نفسها، وبنو النضير طائفة من اليهود بناحية المدينة أيضاً، وكانوا يعدون لحرب رسول الله، بمؤامرة دبرها معهم المشركون في مكة.

وفي السنة الرابعة تقع غزوة الاحزاب، وهي معروفة؛ وغزوات أخرى بعدها.

وفي السنة الخامسة تقع غزوة دومة الجندل على اطراف الشام، لان الروم جمعوا جوعا كبيرة هناك لمهاجمة الرسول، ثم غزوة بني قرظة، وهم جماعات من اليهود كانوا قد دبروا مع قريش المؤامرات ضد رسول الله، وظاهروا المشركين وأعانوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي السنة السادسة كانت غزوة الحديبية، وفي السنة السابعة تقع غزوة خيبر وفيها اليهود الذين كانوا يأتمرون برسول الله مع قريش والمشركين.. وتقع كذلك في السنة الثامنة للهجرة غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين والطائف، وغزوة مؤتة، ثم كانت رسل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء في كل مكان.

وفي السنة التاسعة والعاشرة جاءت الوفود من أنحاء جزيرة العرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعلن خضوع القبائل العربية، ووفودها لأول مرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقص الذهبي في كتابه كل ذلك وغيره في إفاضة وسعة تحليل، وفي استيعاب ودقة وعمق ووفور مصادر.

والذهبي يستقصي الروايات ويناقشها ويصحح أخطاء بعضها ان كان هناك خطأ، ويقف دائما مع أقوى الروايات.

ويعتمد الذهبي في تأريخه للحوادث على أوثق المصادر من كتب السنة، والتأريخ والمغازي والطبقات والسيرة النبوية مناقشا ومحللا ومرجحا في عقلية مؤرخ واحاطة محدث، واستقصاء باحث، واهتمام عالم والتزامه بالمنهج العلمي التاريخي الرفيع.

في غزوة الحديبية مثلا يستوثق مصادر من الصحيحين ومن رواية الزهرى عن عروة بن الزبير عن المِسْوَر بن مَخْرَجة وفي عدد المسلمين في هذه الغزوة يروي عن ابن مخرجة ان رسول الله خرج عام الحديبية في بضع عشرة مائة من اصحابه، ويذكر رواية شعبه عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن ابي أوفى أن عدد المسلمين يومئذ كان الفا وثلاثمائة، ويذكر رواية جابر ان عددهم كان خمس عشرة مائة، ورواية أخرى عنه أن عددهم كان أربع عشرة مائة، ويقول: وكان جابراً قال ذلك على التقريب، ولعلهم كانوا أربع عشرة مائة كاملة تزيد عدداً لم يعتبره أو خمس عشرة مائة تنقص عددا لم يعتبره، والعرب تفعل ذلك كثيراً، كما نراهم قد اختلفوا في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتبروا تارة السنة التي ولد فيها والتي توفي فيها، فأدخلوهما في العدد، واعتبروا تارة السنين الكاملة وسكتوا عن الشهور الفاضلة ـ أي الزائدة ـ ويبين هذا ان قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا غزوة الحديبية ـ بيعة الرضوان ـ؟ قال أخمس عشرة مائة، قلت: إن جابر قال: أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله، لقد وهم ـ اي ظن بذلك وأخطأ في ظنه ـ هو حدثني انهم كانوا خمس عشرة مائة، أخرجه البخارى.

هذا الاستقصاء العجيب في ذكر الروايات يدل على اننا امام مؤرخ جليل،

وعالم عظيم، وبحسبنا ان يقول عن كتابة هذا «تاريخ الاسلام» معاصر له مثل ابن الزملكاني: هذا الكتاب جليل، وهو كتاب علم، ويقول فيه حاجى خليفة (١٠١٧ - ١٠٦٧ هـ): هو تاريخ كبير على ترتيب السنوات، جمع فيه بين الحوادث والوفيات، ويقول عنه ادوار فانديك (١٨٤٦ - ١٩٣٧؟) في كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع»: «الكتاب في التاريخ السياسي وطبقات العلماء لغاية سنة ٧٠٠ هـ، وقيل: بل لغاية سنة ٧١٥ هـ ، وجعله على جملة أجزاء، ورتبه على سبعين طبقة، كل طبقة عشر سنين.

ابن خلدون والعمران البشري

- ١ -

ابن خلدون موضوع قديم جديد فهو عبقرية من عبقريات الاسلام التي ظهرت في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي، وهو ملحمة من ملاحم الفكر العربي وحياته اشبه بالاساطير التي نسمع بها.

ولابن خلدون في مصر قصة طويلة حافلة بالذكريات الخالدة. وابن خلدون عربي حضرمي عاش أجداده في اشبيلية في الاندلس، وبعد سقوط اشبيلية في أيدي المسيحيين هاجروا الى سبته وشغلوا مراكز مرموقة ثم هاجروا الى المغرب، وكان جده محمد بن خلدون حاجبا للامير أبي فارس حاكم إحدى المدن الكبرى في افريقيا، وهي بجاية، أما والده محمد بن محمد ابن خلدون الحضرومي، فكان من أعلام الفكر التونسي وأدبائها.

ولد ابن خلدون ابو زيد عبد الرحمن الحضرمي بتونس في ٢٧ مايو ١٣٣٢ م ٧٣٢ هـ ، وقد ظهر نبوغه وعبقريته وهوفي سن الشباب، ونبغ في علوم الشريعة واللغة والادب والتاريخ، وشغل وظائف كثيرة في الدولة، وأصبح كبير الأمناء بديوان السلطان الحفصي، ثم صار سكرتيرا له، وسمح له بالمشاركة في مجالسه ومناظراته العلمية والتوقيع عنه، وتزوج ابن خلدون من ابنة قائد جيش الحفصيين محمد بن الحكم، وفي المغرب العربي، وفي دولة غرناطة اشتهر ابن خلدون في كثير من الاحيان بنشاطه السياسي، وتعرض

لمحن كثيرة هنا وهناك، وكانت فترة عمله في خدمة الامير ابي عبد الله محمد امير بجاجة من ازهى الفترات في حياته السياسية، ففيها عمل حاجبا للامير، اي رئيسا لجهاز الدولة... وهذه المغامرات السياسية، والمحن التي تعرض لها جعلته يزهد في السياسة ومناصبها، ويبدأ التفكير في التفرغ للحياة العملية، حيث تخلى عن الاعمال السياسية وتفرغ لكتابة كتابه التاريخي «العبر» وبدأ بكتابة مقدمته المشهورة، وهو مقيم في أحياء بني عريف، وتعني «المقدمة» الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

وانتقل ابن خلدون الى وطنه تونس، واستطاع ان ينجح في كسب ثقة السلطان وعطفه، وفي ذلك الوقت اخذ يواصل عمله في التاريخ للعرب والبربر، فاتم تدوين أصول كتابه التاريخي عام ١٣٨١ م، ولكنه وجد نفسه محاطا بالدسائس والمؤامرات، فعزم على الهجرة من تونس الى القاهرة، وفي ٢٥ من اكتوبر عام ١٣٨٢ م غادر ابن خلدون وطنه متوجها الى الاسكندرية، فالقاهرة.

وصل ابن خلدون الى القاهرة في فبراير ١٣٨٣ م، وبدأ يلقي دروسه في الازهر الشريف على الطلاب وهي دروس في الفقة المالكي، وفي التاريخ وفلسفته، وفي نظرياته في العمران البشري وصار ابن خلدون في قمة المجتمع القاهري، ويقول عنه ابن حجر العسقلاني: «كان لسانا فصيحا حسن الترسل مع معرفة تامة بالامور خصوصا متعلقات المملكة».

وشمل السلطان برقوق ابن خلدون برعايته وعطفه، وفي اوائل عام ١٣٨٤ م عيّنه السلطان في منصب التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمر بن العاص في الفسطاط، وهي مدرسة الفقه المالكي، ولم يلبث السلطان الا قليلا، حتى اصدر أمرا بتولي ابن خلدون منصب قاضي قضاة المالكية.

وشارك ابن خلدون في حياة مصر السياسية بنشاط وفاعلية، وفي رواق المغاربة بالازهر استكمل ابن خلدون مقدمته المشهورة، وتاريخه «العبر»،

ويقول احد خصوم ابن خلدون وهو الركراكي: «ان محاضرات ابن خلدون اليها المنتهى».. وهكذا نقح ابن خلدون طائفة من فصول كتابه التاريخي بناء على المصادر الجديدة التي اطلع عليها بالقاهرة كما نقح الكثير من أفكاره في المقدمة.

ومادة كتابه عن التتار والترك وتيمورلنك والمماليك جديدة، كتبت في القاهرة، ووصل في تاريخ المغرب الى اواخر القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي. وفصل المقدمة عن العلوم كذلك مما كتبه في القاهرة.

والتف حول ابن خلدون نخبة من العلماء والطلاب، وكان من تلاميذه المقريزي الذي كان يلقب استاذه ابن خلدون بلقب «شيخنا» وبلقب العالم العلامة شيخ الفقهاء، ويسجل في كتبه «السلوك لمعرفة الملوك» حياة ابن خلدون في مصر، وكذلك فعل في كتابه «در العقود الفريدة» وهو الكتاب الذي اقتبس ابن حجر والسخاوي كثيرا من نصوصه.

وزادت مكانته عند السلطان برقوق وفي نفس الوقت كان يقوم بطلب من السلاطين الحفصيين والمرينيين بسفارات دبلوماسية باعتباره ممثلا للمغرب، وبذلك من اجل تاكيد حماية التجارة وسلامة الحجاج.. كما كان سفيرا للسلطان الفرج بن برقوق لدى تيمورلنك (فبراير ١٤٠١ م).

وكان ابن خلدون يترك القاهرة أحيانا الى الفيوم في قرية من قراها كانت مهداة اليه على سبيل الاقطاع. وفي خلال اقامته في هذه القرية كتب النسخة الاولى من سيرته الذاتية حتى وصل بها الى عام (١٣٩٥ م / ٧٩٧ هـ).

وقضى ابن خلدون في القاهرة الاعوام الاخيرة من حياته يواصل العمل في تنقيح كتابه «العبر» وفي مقدمته، وفي سيرته الذاتية، وأدركه اجله المحتوم في (١٧ من مايو ١٤٠٧ م / ٨٠٨ هـ). ودفن في مقبرة الصوفية بالقرب من باب النصر في مدينة القاهرة، بعد جهاد طويل، وكفاح مرير، وصراع مستمر للاحداث وللحكام وللمحن التي احاطت به من كل جانب.

وعن «العمران البشري في مقدمة ابن خلدون» كتبت «سفيتلانا باتسييفا» الروسية كتابا بهذا العنوان، ترجمه من الروسية الى العربية الاديب العربي المرحوم «رضوان ابراهيم» ونشرته الدار العربية للكتاب بتونس منذ ست سنوات - عام ١٩٧٨ م - في ٢٩٢ صفحة.

وفي هذا الكتاب تتحدث المؤلفة عن عصر تأليف المقدمة، وعن حياة ابن خلدون، والمراحل التاريخية لدراسة المقدمة، وعن النظرية الفلسفية لابن خلدون، وهذه البحوث هي الفصول الخمسة التي يتألف منها الكتاب، ما عدا المقدمة والخاتمة.

فعن عصر تأليف المقدمة تحدثت المؤلفة بصفة خاصة عن الحياة الاقتصادية في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، وأشارت بصفة خاصة الى بعض التيارات السياسية التي شملت المغرب العربي خلال القرن الرابع عشر الذي عاش فيه ابن خلدون.

وعن المراحل التاريخية لدراسة المقدمة اشارت الباحثة الى العلماء الاوروبيين والعرب الذين أولوا المقدمة عنايتهم، وترجموها الى لغتهم او درسوها وكتبوا بحوثا خصبة في دراستها وهي تؤكد أنه «يجب أن يقال على الفور ان المفكرين الاوروبيين في عصر النهضة لم يتوصلوا الى المنزلة السامية في الفكر التاريخي الاجتماعي والفلسفي الذي نجده عند ابن خلدون».

وفي رأي المستشرق جيب ان ابن خلدون يضع تصورات الفقهاء السنيين القدامى أساسا للافكار الفلسفية وجميع مفاهيم ابن خلدون انما هي تطوير بعيد المدى للمبادىء الدينية للاسلام طبقا لتاريخ المجتمع، ولم يكن ابن خلدون مسلما فحسب، بل كان كذلك رجل دين وفقيها للمدرسة المالكية وقد اعتبر الشريعة وحدها قيادة صحيحة، ويكتب جيب: «لم يستطع ابن خلدون ان يدخل في تنظيم آرائه أي شيء لا يتفق منطقيا مع تعاليم الإسلام».

أما الفصل الرابع من الكتاب فهو عن نظرية ابن خلدون في فلسفة

التاريخ، واذا كانت المقدمة هي الجزء الاول من كتاب «العبر» لابن خلدون، فان المستشرقين في مؤلفاتهم يطلقون «المقدمة» على الجزء الاول من كتاب «العبر» مع مقدمة المؤلف في فصل علم التاريخ، وهذه التسمية مأخوذة عن حاجي خليفة الذي سماها في بعض فصول موسوعاته «كشف الظنون»: «مقدمة ابن خلدون».

وابن خلدون يسمي الكتاب الاول من مؤلفه التاريخي بعنوان: «في طبيعة العمران» أي طبيعة الحياة الاجتماعية ويقول ابن خلدون في مستهل كتابه التاريخي «أنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة حجابا، وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا، بابا، وأبديت فيه لاولية الدول والعمران عللا وأسبابا، وبنيته على أخبار الامم الذين عمروا المغرب في هذه الاعصار، وملأوا أكناف النواحي منه والامصار، وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار، ومن سلف من الملوك والانصار، وهم العرب والبربر، إذ هما الجيلان اللذان عرفا بالمغرب مأواهما، وطال فيه على الاحقاب مثواهما» فهذبت مناحيه تهذيبا، وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريبا، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني في العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب:

والكتاب الاول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية، من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والاسباب.

والكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم، منذ بدء الخليقة الى هذا العهد، وفيه الالمام ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم، مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجه.

والكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن اليهم، وذكر اوليتهم وأجيالهم، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول.

وعن المقدمة يقول ابن خلدون: انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة أبواب:

الاول: في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض.

الثاني: في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية.

والثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

والرابع: في العمران الحضري والبلدان والامطار.

والخامس: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

والسادس: في العلوم واكتسابها، والمعنى التاريخي الاجتماعي المعاصر لاصطلاح «المدينة» الذي يعني «المقومات الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع في طور محدد» لا يطابق هذا المحتوى الذي وضعه ابن خلدون للعمران، ولا يوافق مفهوم اصطلاح «الحضارة»، لان العمران هو نفس العملية الخاصة بالنشاط الحيوي للمجتمع، والترجمة الحرفية للاصطلاح هي «الحياة الاجتماعية» فهي مطابقة لمفهوم «العمران» عند ابن خلدون، ومن أجل ذلك حدد ابن خلدون مسائله في ثلاثة اتجاهات متميزة:

١ ـ اتجاه فلسفي، وهو تعليل للكائنات ومباديها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها (ج ١ ص ٢ المقدمة)

٢ ـ اتجاه تاريخي وهو بحث اسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل.

٣ ـ اتجاه اجتماعي وهو شرح أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الانساني: من أسباب أولية الدول والعمران، وشرح وتحليل لاحوال المجتمع البشري.

أما الفصل الخامس من الكتاب فهو عن النظرية الفلسفية لابن خلدون. ولقد حدد ابن خلدون علمه الجديد « العمران » بأنه فرع هام من الفلسفة كما ذكر في المقدمة (ج ١ ص ٢)، فالعلم الجديد يندرج في نظره تحت مفهوم العلوم الفلسفية.

حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة

- **ليس في العالم احد مثل السيوطي في كثرة مؤلفاته**
- **السيوطي جدّد للامة الإسلامية دينها في القرن التاسع الهجري**
- **كان مفتوناً بمصر وعجائبها التي لا يصدقها عقل**

يعتبر هذا الكتاب من أهم الموسوعات التاريخية التي كتبت عن مصر الإسلامية. فلم يفت مؤلفه الامام جلال الدين السيوطي ان يؤرخ فيه للفكر المصري وللآثار والخطط المصرية حتى عصره.

ويبدو ان الكتاب من تراث السيوطي الذي كتبه في أواخر حياته، ففي ترجمته لنفسه فيه يقول عن نفسه فيما يقول: «وقد أزف الرحيل، وبدأ الشيب، وذهب اطيب العمر».

واذا كان السيوطي قد توفي عام (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، فلعله يكون قد الفه في نهايات القرن التاسع الهجري وقبل وفاته بنحو احد عشر عاما أو يزيد قليلا.

وقد طبع الكتاب في القاهرة طبعات كثيرة. طبع بالحجر عام (١٨٦٠ م - ١٢٢٧ هـ)، وطبع في مطبعة الوطن العربي عام (١٨٨٢ م/١٢٩٩ هـ)، وطبع في مطبعة الموسوعات عام (١٩٠٣ م / ١٣٢١ هـ)، وفي مطبعة السعادة عام (١٩٠٦ م / ١٣٢٤ هـ)، وقد ذكر هذه الطبعات كلها سركيس في كتابه «١٠٧٨/١» ولكن الطبعة التي لدي هي طبعة المطبعة الشرفية، وعليها

تاريخ الطبع وهو عام ١٣٢٧ هـ، وقد طبع في القاهرة طبعة حديثة محققة عام ١٩٦٧ بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ومن قبل طبع جزء صغير منه ترجمة لاتينية في خمسين صفحة في أوبسالا عام ١٨٣٤ م باهتمام ترنبرج.. وفي مكتبة جامعة الرياض نسخة خطية منه برقم ١٠٥٦، تم نسخها عام ١٠٠٦ هـ وتقع في ٢٨٣ ورقة.

آية في سرعة الكتابة

وللسيوطي آثار كثيرة في التاريخ، من مثل كتبه: تاريخ الخلفاء، وتاريخ السلطان الاشرف قايتباى، وتاريخ الصحابة، وتاريخ اسيوط، ومن اجلها كتابه «حسن المحاضرة». وله في التراجم لاعلام الثقافة العربية الإسلامية كتب كثيرة من مثل: طبقات المفسرين، وطبقات الحفاظ، وطبقات الاصوليين، وطبقات الشافعية، وطبقات الاولياء الذي سماه «حلية الاولياء»، وطبقات الكتاب، وطبقات شعراء العرب، وطبقات النحويين، ومناقب ابي حنيفة، ومناقب مالك، و«نظم العقيان في اعيان الاعيان»، الذي يحتوي على مائتي ترجمة لاعلام عصره، ونشره فيليب حتي، وله كذلك: الرحلة الملكية، والرحلة الفيومية، والرحلة الدمياطية الى غير تراثه الذي يتصل بالتاريخ.

وقد عاش السيوطي حياته كلها وهو يؤمن بوطنه العظيم، مصر الخالدة، ايمانا كبيرا، ويؤمن بحضارتها الفكرية والمادية، ويؤمن بتاريخها وعروبتها واسلامها ايمانا راسخا.

وكان السيوطي مولعا بقراءة التاريخ المصري، ومتأثرا بمدرسة المؤرخين المصريين الذين عاشوا قبل ذلك عامة، وكان فيه انطباعات كثيرة عن فلسفة ابن خلدون للتاريخ، وكان ابن خلدون قد هاجر من تونس الى القاهرة عام ١٣٨٢ هـ، وأقام فيها، والقى محاضراته في الجامع الازهر وفي المدرسة القمحية وغيرهما، وتوفي في القاهرة (عام ٨٠٨ هـ /١٤٠٥ م). كما تأثر السيوطي بالمقريزي، وابن حجر وغيرهما من أعلام المؤرخين في القرن التاسع وكان من بينهم معاصر السيوطي، المؤرخ ابن اياس، صاحب كتاب «الضوء اللامع» في اعيان القرن التاسع.

وكان السيوطي من الاعلام الكبيرة التي عاشت جل حياتها في القرن التاسع الهجري (٨٤٩ - ٩١١ ١ - / ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)، وكان والده من كبار علماء عصره وقضاته، وكانت اسرته تنتمي في اصولها البعيدة الى أصول بغدادية، وهاجرت الى مصر في عصر الدولة الايوبية على وجه التقريب، ولعل مما يؤيد هذا تقرب هذه الاسرة الى الخلفاء العباسيين في القاهرة، ونجد السيوطي يجعل عنوان كتاب من كتبه «المتوكلي» نسبة الى الخليفة العباسي المتوكل علىَ الله في القاهرة، وتولى السيوطي نفسه كذلك تدريس الفقه فيه أيضاً كما تولى منصب المشيخة في المدرسة الشيخونية، وهو المنصب الذي كان يشغله ابوه من قبل، كما شغله ايضا استاذه الكمال بن الهمام الحنفي «٨٦١ هـ». وتولى السيوطي كذلك منصب الاستاذية في الحديث والفتوى في الجامع الطولوني، ودرس الحديث بالخانقاه «بيوت الصوفية» الشيخونية، وتولى مشيخة التصوف بمقبرة برقوق الناصري، ثم مشيخة التصوف بمقبرة البيبرسية، وهي اكبر خوانق القاهرة آنذاك وأكبرها خوانق القاهرة أوقافا في عصره.

وعاش السيوطي حياته كلها مع الكتاب والتأليف والتدريس والفتيا، ومع تلاميذه ومريديه، ولكنه في العشرين سنة الاخيرة من حياته اعتزل الناس، ولزم بيته للتأليف والكتابة والقراءة، وكان من ثمرة ذلك كله كتبه الموسوعية الكبيرة في مختلف فروع الثقافة الإسلامية التي عد من أئمتها وروادها الكبار، وقد بلغت مؤلفاته ستمائة كما يذكر ابن اياس المؤرخ الكبير، وذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» ان مؤلفاته بلغت حتى وقت تأليفه لهذا الكتاب ثلاثمائة.

ويذكر بروكلمان انها لا تبلغ أكثر من أربعمائة، وأحصى له المستشرق فلوكل ٥٦١ مؤلفا، وقد تكون بعض مؤلفاته وريقات قليلة ككتاب «المتوكلي» مثلا، وقد تكون اجزاء كثيرة ضخمة ككتابه «الدر المنثور». وغيره.

ويقول تلميذه الداودي «٩٤٥ هـ» الشافعي المحدث العلامة في انبهار بعظمة شيخة السيوطي: كان السيوطي في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله».

وليس في العالم من بلغ ما بلغه السيوطي في كثرة المؤلفات سوى «رامون لول» الاسباني احد كتاب العصور الوسطى الذي بلغت مؤلفاته نحو الخمسمائة، وقد كتب في الفقة الحديث والتفسير، وعلوم العربية، والبلاغة، والادب، والتاريخ، والتراجم، والرحلات، والاصول، وابتكر علم أصول اللغة، وغيرها.

وانتشرت مؤلفاته في العالم الإسلامي كافة، واقبل عليها الطلاب والعلماء والدارسون بشوق ولذة، واعتمد على العقل والنقل، واضافات كثيرة وجديدة الى ما سبق اليه اسلافه من العلماء وكان يعد نفسه المبعوث الالهي في القرن التاسع الهجري، ليجدد للامة الإسلامية دينها، مصداقا للحديث الشريف: «ان الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الامة من يجدد لها دينها».

ومن عظمة ايمان السيوطي بالفكر المصري الإسلامي انه قال: «ومن اللطائف ان المبعوثين على رأس اكثر القرون مصريون: عمر بن عبد العزيز في المائة الاولى، والشافعي في الثانية، وابن دقيق العيد (٧٠٢ هـ) في السابعة، والبلقيني (٧٩١ - ٨٦٨ هـ) في الثامنة، ثم استدرك السيوطي الذي يرى نفسه هو إمام علماء المسلمين في القرن التاسع الهجري، فقال: «وعسى ان يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر»، وهو بذلك يعني نفسه..

وفي مقدمة كتاب «حسن المحاضرة» يذكر مصادر كتابه العديدة، من مثل: فتوح مصر لابن عبد الحكم، وفضائل مصر للكندي، وتاريخ مصر لابن زولاق، وتاريخ مصر لابن يونس، والخطط للمقريزي، والمسالك لابن فضل الله، والاصابة لابن حجر، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، وتاريخ الاسلام للذهبي، والعبر للذهبي كذلك، والبداية والنهاية لابن كثير، وغيرها من مختلف المصادر.

وفي صدر المقدمة يقول السيوطي: «هذا كتاب سميته «حسن المحاضرة، في اخبار مصر والقاهرة، أوردت فيه فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للوحيد نعم الانيس».

ثم يتحدث السيوطي في الجزء الاول من الكتاب عن الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر مصر، تنويها بها، وتشريفا لها، ثم يتحدث عن تاريخ مصر القديمة قبل الفتح العربي لها، مما اطلع عليه من روايات ونصوص للمؤرخين من قبله، ويتحدث عن الفتح الإسلامي لها طويلا، ثم يذكر امتدادات الفتح لكل اقاليمها، ومن دخل مصر من الصحابة، ومن التابعين، ومن تابعي التابعين. ويفيض في ذكر عظمة التاريخ الفكري والعلمي لمصر، فيتحدث عمن ظهر في مصر من الائمة المجتهدين، ومن رواة الحديث وحفّاظه، ومن المحدّثين، والفقهاء، وأئمة القراء، والاعلام في العربية، ومن نبغ فيها من الفلاسفة والاطباء والمهندسين وغيرهم.

وفي الجزء الثاني يتابع الحديث عن وطنه العظيم مصر، فيتحدث عن الجوانب السياسية، وعن أمراء مصر وملوكها من الفاطميين، والايوبيين، وسلاطينها من المماليك، والخلفاء العباسيين الذين جلسوا فيها على عرش الخلافة العباسية في القاهرة.

ويتحدث عن الوظائف السياسية في عصره وعن قضاة مصر، وعن آثارها الإسلامية: جامع ابن طولون، والجامع الازهر، وغيرها، كما يتحدث عن المدارس العلمية في القاهرة، وعن الآثار المصرية وعن النيل، والروضة، والمقياس والخليج المصري، وغيرها من مختلف الآثار والمشاهد والاحياء.

والسيوطي يكاد يجعل كتابه في وصف الحياة العلمية والفكرية في مصر الإسلامية، وفي تاريخها السياسي منذ الفتح الإسلامي وفي آثارها ومدارسها ونيلها وأحيائها، وكل ما يتصل بها سياسيا وفكريا وحضاريا.

والكتاب موسوعة كبيرة في التاريخ المصري، وهو مصدر مهم للمؤرخين منذ تأليف الكتاب الى اليوم، والسيوطي فيه مفتون بمصر: فكراً، وطبيعة، وآثاراً.

ونقرأ له في آخر الكتاب وهو يقول: «وكنت ابيت بعض الليالي في الفسطاط على ساحلها، فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل، أما سور هذه الجزيرة - أي الروضة - الذري اللون، فلم ينفصل عن مصر، وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه همة بانيها، وهو من اعظم السلاطين همة في البناء، وأبصرت في هذه الجزيرة - الروضة التي كان يقيم السيوطي فيها، وكان منزله بها - ايوانا لجلوسه لم تر عيني مثالا له، ولا يقدر ما انفق عليه، وفيه من الكتابة بصفائح الذهب والرخام الابنوسي والكافوري ما يذهل الافكار، ويستوقف الابصار، وقد تفرجت كثيرا في طريق هذه الجزيرة، فقطعت بها عشيات مذهبات، لا تزال لاحزان الغربة مذهبات».

وينقل السيوطي عن علي بن سعيد صاحب كتاب «المغرب» ان الخليفة الفاطمي الآمر بنى فيها لزوجته البدوية التي هام في حبها بناء شبيها بالهودج، كما يذكر ان قلعة الروضة كانت عمدها الضخمة منقولة من مراكز الآثار في مصر، وان السلطان قلاوون قد اخذ اعمدة هذه القلعة ليبني بها المارستان والقبة والمدرسة المنصورية، وكذلك فعل ابنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون. والسيوطي في كتابه مفتون بمصر وبطبيعتها الجميلة، ونيلها الساحر، والآثار المصرية ليس مثلها، وعجائبها لا يصدقها عقل.

ويذكر ان بمصر من المدارس والزوايا وبيوت الصوفية «الخوانق» والعمائر الجليلة الفائقة المعدومة المثيل، المفروشة بالرخام، المسقوفة بالاخشاب المدهونة الملمعة بالذهب واللازورد ما لا يحصى.

وينقل السيوطي عن الجاحظ ان عجائب الدنيا ثلاثون: عشرة منها في بلاد الدنيا، وعشرون في مصر، ومنها الهرمان.

ويقول عن الاهرام إنها اطول بناء وأعجبه وليس على الأرض بناء أطول منه.

ويذكر منارة الاسكندرية العجيبة، فيقول: ويقال ان الذي بنى منارة الاسكندرية قليوبطرة الملكة «كليوبترا».

ويروي انه في عام (٢٤٤ هـ / ٨٥٩ م) اتفق عيد الاضحى وعيد الفطر لليهود وعيد الشعانين للنصارى في يوم واحد.

مصر كما يذكر السيوطي ذكرت في القرآن في اكثر من ثلاثين موضعا، كما ذكرت في الحديث النبوي الشريف مرات كثيرة. وفي اعتزاز كبير بمصر يذكر السيوطي من دخل مصر من الأنبياء، ويتحدث عن معجزات الفتح الاسلامي لمصر حديثا طويلا ويمزج السيوطي في كتابه بين الحقائق التاريخية والاساطير المروية التي تخدم التاريخ، فيذكر نبوءة كاهن مصر لعمرو بن العاص بانه سيملك مصر.

ويذكر السيوطي ان القبط الذين كانوا بمدينة «الفرما» حين قدوم عمرو بجيشه الاسلامي كانوا يومئذ لعمرو أعوانا، ويذكر ان القبط كان منهم معظم الجند في جيش مصر قبيل الفتح العربي لها، ولا شك ان مثل هؤلاء اذا كفوا عن الحماس في قتال جيش عمرو كان ذلك مدعاة للنصر الكبير الذي ناله القائد العربي المسلم عمرو بن العاص بفتح مصر.

الفكر المصري البناء

ومن عظمة الفكر الاسلامي في الفتح ما ذكره السيوطي عن حديث حاطب بن ابي بلتعة مع المقوقس أمير مصر من قبل قيصر الروم، وان حاطبا قال للمقوقس: «ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوارة الى الانجيل».

ويذكر السيوطي ان سكان مصر في زمن الفتح العربي كانوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس «أي ستة ملايين». ويفيض في ذكر فتح الاسكندرية.

ويتتبع السيوطي تاريخ مصر بعد الفتح الاسلامي، مبيناً عظمة مصر، التي طبعت العرب الفاتحين بطباعها، واكسبتهم الروح المصرية الباهرة الاصيلة.

ويحدد السيوطي حدود مصر من رفح والعريش الى الفرما الى دمياط ورشيد والاسكندرية وبرقة على الساحل الذي يقع على ضفافه حوض البحر الابيض المتوسط الجنوبي.

ويذكر بناء القاهرة وسبب تسميتها بهذا الاسم بعد ان كان جوهر قد سماها المنصورية، فلما قدم المعز اليها غيّر اسمها وسماها «القاهرة».

ولقد عاش السيوطي في عصر المماليك الذين حكموا الدنيا، ودان لهم المشرق، وامتد نفوذهم من الهند الى ساحل المحيط الاعظم «الاطلسي»، بعد هزيمتهم للتتار في عين جالوت، وبعد اجلائهم للصليبيين اجلاء كاملا من سواحل الشام، وكانت مصر في ايامه باصالتها وحضارتها وعظمتها ومجدها الكبير، وبامتلاكها لناصية السيطرة العالمية على الشرق، أكبر قوة عسكرية في العالم، ولم يكن يضارعها على ايامه الا دولة آل عثمان التي فتحت جيوشها القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح عام (٨٥٧ هـ /١٤٥٣ م).

وكان السيوطي هو أشهر علماء عصره، وهو مثال رائع للفكر المصري المتوثب البناء العامل من اجل استمرار الحياة والحضارة والتقدم في بلاده.

كان الشعب المصري على ايامه يملك زمام التجارة العالمية، وقد جاء البرتغاليون مزاحمين لمصر ولسيادتها البحرية، ولتفوقها التجاري، حتى لقد اكتشفوا طريق راس الرجاء الصالح فاخذت تجارة اوروبا تتحول الى الطريق الجديد، وكان عاملا كبيرا في بدء ظهور الازمة الاقتصادية التي اضرت باقتصاد مصر وبتجارتها العالمية.

وقد توفي السيوطي قبيل الغزو العثماني لوطنه باثنى عشر عاما، فلم يشهد الاحداث الدامية التي حدثت مصاحبة لهذا الغزو المدمر، الذي حطم الامبراطورية المصرية. ونقل مصر من دولة لها السيادة على الشرق ولها مكانتها العالمية الكبرى الى دولة مغلوبة على امرها، الخلافة الإسلامية تنتقل منها الى

القسطنطنية، وكانت قبلا فى القاهرة منذ عام ٦٥٩ هـ، بل كانت مصدرا من مصادر عظمة مصر وجلالها، حتى ليقول السيوطي في كتابه:

« واعلم ان مصر من حين صارت دار الخلافة عظم امرها، وصارت محل سكنى العلماء، ومحط رحال الفضلاء ومقصد الادباء والشعراء ».

جسور على النيل

لقد هزت حضارة مصر ومجدها وازدهارها في عصره وجدان هذا العالم الكبير، فكان كتابه « حسن المحاضرة » سجلا دائما لعظمة مصر ومدنيتها ورخائها، ولازدهار الحياة الفكرية والعلمية والادبية فيها، بل كان نشيدا ملحميا رائعا في وصف جلال مصر ومجدها وآثارها ومدارسها وعظمة الحياة العقلية فيها. كل ذلك مع حرص السيوطي حرصا كاملا على روح البحث، وحقائق العلم ومع المحافظة التامة على المنهج التاريخي الذي التزم به في الكتاب التزاما كاملا.

ومن الغريب ان السيوطي الذي توفى عام ٩١١ هـ في عهد السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ)، والذي ألف كتابه « حسن المحاضرة بعد عام ٨٨٨ هـ بقليل، يوالي كتابة الحديث عن ملوك مصر حتى عام ٩٢٨ هـ، أي حتى بعد دخول الجيش العثماني القاهرة، ويبدو ان هذه الزيادات التي كتبت وزيدت على الاصل الذي كتبه السيوطي نفسه هي من صنع احد تلاميذ هذا الاستاذ المؤرخ العظيم.

ولا انسى أن أذكر الجسور « الكبارى » الموجودة بين مصر والروضة وبين الروضة والجيزة ليست بالامر الجديد على العقل المصري، فقد كانت هناك جسور كذلك على النيل في عهد السيوطي الذي يقول في كتابه: « كان فيما بين ساحل مصر والروضة جسر من خشب، وكذلك فيما بين الروضة والجيزة جسر من خشب يمر عليها الناس والدواب من مصر الى الروضة، ومن الروضة الى الجيزة، وكان هذان الجسران من مراكب مصطنعة بعضها بحذاء بعض، وهي موثقة « بالحبال »، ومن فوق المراكب اخشاب ممتدة، فوقها

تراب، ولم يزل هذا الجسر قائما الى ان قدم المأمون، فاحدث جسرا جديداً، فاستمر الناس يمرون عليه، وكان عبور العساكر التي قدمت مع جوهر على هذين الجسرين..»

واخيراً فكتاب «حسن المحاضرة» كتاب رائع حقا، وهو من أمهات المصادر في تاريخ القاهرة خاصة وفي التاريخ المصري الإسلامي عامة، ويضيق المجال في استقصاء روائع ما اشتمل عليه من حقائق ومعلومات واحصائيات وتحليل ونقد ووصف لمظاهر الحياة المصرية في القرن التاسع الهجري العظيم.

بدائع الزهور

لابن اياس

- ١ -

« بدائع الزهور في وقائع الدهور » للمؤرخ المصري الكبير محمد بن أحمد بن اياس الحنفي، من أشهر موسوعات التاريخ المصري، ومن أهم ما خلفه المؤرخون المصريون من تراث جليل على طول الاجيال.

وقد بدأ ابن اياس التأليف فيه (عام ١٤٩٣ م / ٨٩٩ هـ)، وانتهى من الجزء الرابع منه في اوائل (عام ١٤٩٥ م / ٩٠١ هـ)، وبعد ثلاثة عشر عاما كان قد انتهى من الجزء الثامن (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م)، وبعد ذللك بثمانية اعوام كان قد انتهى من الجزء العاشر من هذه الموسوعة التاريخية، اي (عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م)، وهو عام دخول العثمانين مصر، وبعد ذللك بستة اعوام اتم كتابة الجزء الحادي عشر، اي (عام ٩٢٨ هـ - ١٥٢٢ م)، وبدأ في كتابة الجزء الثاني عشر منه، وهو في السادسة والسبعين من عمره، ولكنه مات في العام التالي، اي (عام ٩٢٩ هـ - ١٥٢٣ م)، ولم يوقف على شيء من هذا الجزء « الثاني عشر »، ولا يدرى: هل بدأ فيه وكتب منه شيئا أو لم يكتب فيه على الاطلاق.

وصار « بدائع الزهور » مصدراً كبيراً من مصادر التاريخ المصري، وتداوله النساخ بالكتابة وبالاختصار احيانا.

وطبع الكتاب في مطبعة بولاق عن نسخة مختصرة في أواخر القرن التاسع

عشر، ثم نشرت جمعية المستشرقين الالمان في استنبول ثلاثة اجزاء منه ضاعت خلال الحرب العالمية الثانية، ونشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في القاهرة جزءاً من هذه الموسوعة، حققه د. محمد مصطفى زيادة وعملت وزارة الثقافة المصرية بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم وعدة هيئات علمية في مصر والخارج على نشر الكتاب نشرا علميا محققا كاملا، وطبعت دار الشعب مختصرا للكتاب في عدة اجزاء صغيرة، بدءًا من عام ١٩٦٠.

وابن اياس ولد في القاهرة (عام ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)، وتوفي فيها (عام ٩٢٩ هـ /١٥٢٣ م) عن سبعة وسبعين عاما هجريا، أو خمسة وسبعين عاما ميلاديا، وهو من أسرة جركسية الاصل، فهو من الطبقة المملوكية الاميرية، واسرته يرجع تاريخها في مصر الى نحو عام عام ٧٧٥ هـ، وبمرور الزمن اصبحت مصرية في جميع جوانب حياتها، فلقد جاء جده لامه ازدمر العمري الناصري رقيقا مملوكا للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون، وصارت نسبته اليه، وتوفى (عام ٧٨٥ هـ / ١٣٦٦ م)، وجده لابيه وهو اياس الفخري كان من المماليك الجراكسة الذين جلبهم السلطان برقوق، ونسبوا اليه.

ووالد ابن اياس وهو احمد بن اياس كان من الطبقة المملوكية التي تشمل ابناء الامراء من المماليك المندرجين بالوفاة، وهي طبقة على هامش المجتمع المملوكي، وتسمى «فرقة اولاد الناس»، وكان أحمد بن أياس مشهورا في طبقته، كثير الاتصال بامراء الدولة وكبار المسئولين فيها. وكان ابنه شيخ المؤرخين واحدا من خمسة وعشرين ولداً هم اخوته ما بين ذكور واناث وقد ماتوا في حياة والده ما عدا ابنه المؤرخ واخا له اسمه يوسف وبنتا واحدة.

وحياة ابن اياس غامضة فلم يكتب هو عن حياته شيئا، ولم يكتب عنه احد من المؤرخين ترجمة تذكر، وحين بلغ الخامسة من عمره كانت القسطنطينية قد فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح (عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م)، واحتفلت القاهرة بهذا الحدث الاسلامي الكبير، فاقيمت الزينات والافراح فيها ثلاثة ايام متوالية، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي اينال

الذي كان شيخا كبيرا في الرابعة والسبعين من عمره آنذاك والذي تولى بعده السلطان خشقدم، وثم جاء بعده السلطان قايتباي المحمودي (١٤٦٨ م - ٨٧٢ هـ/ ١٤٩٦ م - ٩٠١ هـ) وبعد ذلك بسنوات حكم السلطان الغوري (عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م).

وقد قضى ابن اياس حياته عاكفا على العلم، وعلى التبحر في التاريخ، وكانت مدرسةالمؤرخين المصريين ذات شهرة كبيرة، ومن اعلامها في عصر ابن اياس: المقريزي، والسيوطي، والسخاوى، وابن تغرى بردي، وابن طولون، وابن الصيرفي، وخليل بن شاهين الصفوي، وسواهم. وكان من اساتذته من المؤرخين شيخه عبد الباسط بن خليل الحنفي. ولابن اياس كتب اخرى عدا بدائع الزهور منها:

- نزهة الامم في العجائب والحكم
- مروج الزهور في وقائع الدهور
- عقود الجمان في وقائع الازمان
- نشق الازهار في عجائب الاقطار انتهى من تأليفه عام دخول العثمانيين مصر (٢٢ هـ - /١٥١٦ م).

- ٢ -

و« بدائع الزهور » من المصادر الاصلية في تاريخ عصر السلطان الغوري وقصة الغزو العثماني لمصر. وهو في ذلك يعد مصدراً فريداً في بابه، فقد سجل الاحداث التي شاهدها بنفسه في هذه الفترة الحافلة بالاحداث من تاريخ مصر، وكانت قمة الماساة في هذه الفترة هي هزيمة مصر العسكرية في « مرج دابق » (عام ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م) أمام الجيش العثماني، بعد خيانة عسكرية في صفوف الجيش المصري، سقط فيها الغوري ميتا ولم يعثر على جثته، ودخل سليم الاول العثماني القاهرة، وبددت الامبراطورية المصرية العظيمة التي أقامها المماليك والمصريون بدمائهم وارواحهم منذ ان هزموا التتار في عين جالوت،

واخرجوا الصليبيين من سواحل مصر والشام، وحموا العالم الإسلامي كله من الدمار.

وقد بدأت الأحداث في أواخر القرن التاسع الهجري واوائل القرن العاشر بطواف البرتغاليين حول افريقيا وفي المحيط الهندي ووصولهم الى سواحل الهند، ثم هزيمة الاسطول المصري امام الاسطول البرتغالي في جنوب البحر الاحمر ومداخل المحيط الهندي، واستيلاء البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية من ايدي مصر، ثم بتهديد الجيش العثماني لحدود مصر في الشمال حول اطراف الشام باستمرار، ونفذت ارادة الله الغالبة، وقضاؤه النافذ، ولا راد لقضائه. وضاعت امبراطورية مصر الممتدة شرقا نحو سواحل الهند وشمالا في اطراف حدود الشام، ووضع العثمانيون ايديهم على مقاليد الامور في كل مكان كانت مصر وجيش مصر واسم مصر فيه، ولله الامر من قبل ومن بعد.

ويسجل ابن اياس كل هذه الاحداث الدامية والدموع في عينيه، والاحزان في قلبه، والمأساة تتمثل دائما في خواطره، وهو لا يعرف ماذا يكتب وماذا يقول؟

وفي مقدمة كتابه يقول ابن أياس في مطلع الجزء الأول منه:

« هذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ الموسوم ببدائع الزهور في وقائع الدهور، ذكرت فيه ما وقع في القرآن العظيم من الآيات المكرمة في أخبار مصر، كناية او تصريحا، وما ورد فيها من الاحاديث الشريفة النبوية في ذكرها، وما خصت به من الفضائل، وما جاء فيها من المحاسن دون غيرها من البلاد، وما اشتملت عليه من عجائب وغرائب ووقائع وغير ذلك، ومن نزلها من اولاد آدم ونوح عليهما السلام، ومن دخلها من الانبياء عليهم السلام ومن ملكها من مبتدأ الزمان، من الجبابرة والعمالقة والفراعنة واليونان والقبط وغير ذلك، ومن وليها في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم اجمعين، ومن وليها طائفة الاخشيدية والفاطمية العبيدية، ومن وليها من بني أيوب، وهم الاكراد، ومن وليها من ملوك الترك والجراكسة الى وقتنا

هذا وهو افتتاح عام احدى وتسعمائة « ٩٠١ هـ » وهذا بالطبع تاريخ الانتهاء من تأليفه للجزء الاول من موسوعته - ومن كان بها من الحكماء والعلماء والفقهاء، والمحدثين، والقراء ومن كان بها من الصلحاء والزهاد، ومن كان بها من الشعراء، وغير ذلك من اعيان الناس.

ويشيد المستشرق الانجليزي مارجليوث باسلوب ابن اياس في تاريخه الكبير هذا، وبنهجه فيه في التفكير والنقد، مما ينم عن فردية واستقلال في الرأي، ومما لا يدانيه فيهما معظم المؤرخين..

ووطنية ابن اياس جعلته وهو يكتب عن العثمانين في مصر، وعن تدميرهم لجيش مصر وامبراطورية مصر يكاد يبكي، ويكاد يذرف الدموع حزنا على هذا المجد العظيم الذي بناه المصريون بارواحهم ودمائهم، وبناه جيش مصر ببطولاته وتضحياته، ويذكر الكثير من اسماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم الى استنبول، ويشير الى ما اخذ من اموال مصر وكنوزها، ومن شحنهم على سفن الاسطول العثماني من العمال والفنيين وارباب الصناعات وغيرهم ليبنوا حضارة القسطنطينية في ظلال الراية العثمانية، والله غالب على امره.

ويذكر ابن اياس اخبار العالم القديم، ثم البعثة المحمدية، وتاريخ الاسلام، وتاريخ الفتح الاسلامي لمصر، وابتداء دولة الإسلام فيها، ثم تاريخ الدولة الطولونية في مصر، والدولة الاخشيدية، فالفاطمية فالايوبية، فابتداء دولة المماليك في مصر، فاذا ما وصل الى السلطان بيبرس، بدأ يؤرخ الاحداث بالسنين على نظام الحوليات، من سنة لاخرى حسب الحوادث.

- ٣ -

يكتب ابن اياس عن سنة (٩٠١ هـ / ١٤٩٥ - ١٤٩٦ م)، يقول:

« ختمها الله بخير، وهو اول القرن العاشر، وكان اول مستهلها بالاحد، واول افتتاح العام بالاحد، ففي المحرم كان خليفة الوقت الامام المتوكل على الله العباسي وسلطان العصر الملك الاشرف ابو النصر قايتباى الظاهري ».

ثم يتحدث عن حكم قانصوه الغوري (٩٠٦- ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ م) عاما بعد عام، ويصف مأساة هزيمة معركة «مرج دابق» المشئومة في شعبان من (عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م)، ويعقب على ذللك بقوله: «وكان نهار غضب من الله تعالى وقد انصب على عسكر مصر، وغلّت ايديهم عن القتال، وشخصت منهم الابصار».

ثم يقول: ومات السلطان من شدة قهره، فلم يعلم له خبر، ولا وقف له على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى، فكأن الارض ابتلعته في الحال، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.. وكانت لمدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فانه ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة للهجرة (٩٠٦ هـ)، وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢ هـ.

ويقول ابن اياس في حزن عميق: «ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة، بل ان تيمورلنك حارب احد اجداده فلما حاربه انكسر فأسره تيمور ووضعه في قفص حديد، ولم يقع لاحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ـ النكبة ـ ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله بيد عدوه غير الغوري».

ويصف ابن اياس حزن القاهرة على أثر علمها بهزيمة مرج دابق، ويتحدث عن تولي الملك الاشرف ابو النصر طومان باي ابن اخي الغوري أمور البلاد بعد عمه.

ثم يصف ابن اياس معركة الريدانية بين طومان باي وسليم الاول يوم الخميس التاسع عشر من ذي الحجة عام ٩٢٢ هـ وهزيمة طومان باي امام جيوش سليم ودخول سليم القاهرة وما صنعه فيها من نهب وتدمير طيلة ثلاثة أيام مكللة بالسواد ويقول: انفتحت للعثمانية كنوز الارض بمصر، من كل شيء جليل، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط في بلادهم، ولم يروها قبل ذلك، ومع ذلك اخذ طومان باي يعلن المقاومة في القاهرة، ويحارب جيوش سليم، الى ان كلّ عزمه وعزم أعوانه، فهرب، ووقعت في القاهرة المصيبة

العظمى التي لم يسمع بمثلها قط فيا تقدم من الزمان، وهي انه لما هرب السلطان طومان باي صبيحة يوم السبت ثامن المحرم «٩٢٣ هـ» أحرقت العثمانية جامع شيخو فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التي كانت به، وهجموا على الجامع الازهر، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون وغيرها، وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها، ولم يقاس اهل مصر شدة مثل هذه قط، وقد وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاكو، وهجوم العثمانية على مقام الامام الشافعي ونهبوا ما فيه، وكذلك مقام الليث بن سعد ايضاً نهبوا ما فيه وخرب ابن عثمان غالب الاماكن بالقلعة وفك رخامها ونزل به في المراكب الى القسطنطنية

ويتحدث ابن اياس عن مقاومة طومان باي والمصريين لسليم في الصعيد، وعن المعارك العديدة التي خاضوها مع الجيش العثماني، وعن فظائع سليم وغدره وسفكه للدماء، ونهبه للاموال، وعن قبضه على طومان باي وشنقه له على باب زويلة.

وهنا تتجلى اصابة شعب مصر ووطنيتهم، يقول ابن اياس: فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والاسف، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان، وفتك في عسكره، وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات، وهو في نفر قليل من عسكره ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الابطال.

ويسجل ابن اياس في كتابه قصيدة له في رثاء المماليك، ومنها:

أين الملوك بمصر من ساداتها مثل البدور تضي، وكانت انورا
يا لهف قلبي للمواكب كيف لا تلقي بقلعتها الحزينة عسكرا

- ٤ -

ويقول ابن اياس: ومن العجائب ان مصر صارت نيابة «اي ولاية يتولاها نائب» بعد ان كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد، لانه خادم الحرمين الشريفين وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون، وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر، وما خرج منها حتى غنم اموالها وقتل أبطالها ويتم اطفالها، وأسر رجالها وبدد أحوالها، وأظهر أهوالها، وقد خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، عدا ما غنمه من التحف، وغيرها حتى نقل منها الرخام الفاخر، وأخذ منها من كل شيء أحسنه، مما لم يفرح به اباؤه ولا اجداده من قبله أبداً. وكذلك وما غنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة، وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى. وفي اثناء اقامة ابن عثمان «سليم» بالقاهرة حصل لاهلها الضرر الشامل، وبطل منها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها اصحابها، وكانت مدة اقامته ثمانية اشهر الا اياما قلائل.

ويصف «سليما» وجيشه وصفا يدل على وطنيته، وعلى روح مصر العظيمة في نفسه.

وفي آخر الكتاب يقول ابن أياس:

انتهى ما أوردناه في هذا التاريخ من الاخبار العجيبة، والوقائع الغريبة، وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية. وقد وقع لي من المحاسن في هذا التاريخ ما لم يقع لغيري من المؤرخين فيما اوردوه من تواريخهم القديمة، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير. ولله الحمد والمنة على ذلك.

- ٥ -

ان شخصية ابن اياس في تاريخه، وصدق احكامه التاريخية ودقة ملاحظته، وبعد فراسته وصدقها، وعمق فهمه للامور ونقده لسياسة الملوك والامراء، لشيء مذهل حقا. هذا الى صدق وطنيته، ووضوح مصريته، وعمق ايمانه

بالشعب، ونضاله الواضح ضد الظلم والظلام والجبروت والطغيان.

وما أروع ابن اياس وهو يتحدث عن عظمة مصر حينا، او عن بعض مآسيها واحزانها حينا آخر.

فهو لا شك جدير بتقديرنا وتكريمنا واحترامنا، ولقد مضى على وفاته اليوم أربعة قرون وستون عاما ميلاديا «٤٦٠ عاما» وجدير بنا ان نذكر ابن اياس كل لحظة، وكل وقت هذا المصري الوطني العظيم، وذاك المؤرخ العالم الكبير، الذي خلدته موسوعته التاريخية هذه على امتداد الايام والاجيال.

رحلة العياشي

العياشي عبد الله بن محمد العياشي المغربي الفاسي (١٠٣٧ - ١٠٩٠ هـ/ ١٦٢٨ - ١٦٧٩ م).

من قبيلة بربرية مغربية هي قبيلة عياشي، نشأ في فاس، مدينة العلم والعلماء، ومقر جامع القرويين، حيث أخذ عن أعلام علماء المغرب، من مثل عبد القادر الفاسي، والابار، وابي زيد بن القاضي، والدرعي، وغيرهم..

جاور في الحرمين الشريفين والقدس والخليل وقد حج عدة مرات: (عام ١٠٥٩ هـ - ١٠٦٤ هـ - ١٠٧٢ هـ).

وألف كتبا عديدة انتفع بها العلماء والطلاب في كل مكان.. ومنها:

- رحلته المشهورة المعروفة بماء الموائد
- تحفة الاخلاء باسانيد الاجلاء
- مسالك الهداية
- اظهار المنة على المبشرين بالجنة
- اقتفاء الاثر

وغيرها

والرحلة مطبوعة في فاس عام ١٣١٦ هـ في جزأين يقعان في نحو التسعمائة

صفحة، ثم طبعت بالتصوير عام ١٩٧٧، وأضيفت اليها فهارس متعددة.

وتشمل الرحلة العياشية على وصف دقيق لرحلة المؤلف العياشي الى الحرمين للحج والزيارة، حيث كان خروجه للحج من مراكش يوم الخميس اول شهر ربيع الثاني سنة ١٠٧٢ هـ، ووصل الى القاهرة في ٢٦ رمضان ١٠٧٢ هـ، وأقام بها حتى يوم الخميس ٢٧ من شوال من العام نفسه، وظل يجوب القفار حتى وصل الى مكة في الخامس من شهر ذى الحجة عام ١٠٧٢ هـ، وأقام بها قليلا، ثم خرج - بعد أداء شعائر الحج - الى المدينة المنورة وذلك في الخامس والعشرين من ذى الحجة من العام نفسه، حيث وصل مدينة طيبة في الثاني من محرم عام ١٠٧٣ هـ، وظل مقيما بها حتى الخامس عشر من شعبان سنة ١٠٧٣ هـ، وخرج منها ثم عاد اليها، فاقام فيها الى ان غادرها في اليوم الثاني من شهر المحرم عام ١٠٧٤ هـ، الى العقبة فغزة، فالرملة، فالقدس، ومنها الى العريش فدمياط، فالقاهرة، فالاسكندرية، فطرابلس، ففاس، حيث وصلها في السابع عشر من شهر شوال عام ١٠٧٤ هـ.

وفي الكتاب يصف المؤلف هذه الرحلة وصفا دقيقا، وبخاصة أماكن شعائر الحج المقدسة التي قضى وقتا طويلا فيها بعد اداء الشعائر.

وفي رحلاته كان يلقى العلماء، ويأخذ عنهم، ويقبس من علمهم وفضلهم، حتى لقي ربه عن ثلاثة وخمسين عاما.

وقد قام حمد الجاسر بطبع ما جاء في الرحلة متعلقا بالحرمين الشريفين بعنوان «مقتطفات من رحلة العياشي»، وذلك في نحو الثلاثين ومائتين من الصفحات الكبيرة فكان عملا مثمرا، وبخاصة ان الرحلة العياشية مفقودة الآن اذ نفدت نسخها من زمن طويل، وظهرت هذه المقتطفات منذ أسابيع.

ويصف العياشي كل شيء يشاهده وهو:

- في طريقه الى مكة.

- وفي مكة المكرمة نفسها.

- وفي طريقه الى المدينة المنورة.

- وفي المدينة المنورة نفسها.

ويتحدث عمن لقيهم من العلماء في الحرمين الشريفين، وعن العادات والتقاليد والوظائف وغيرها في الحجاز في ذلك العهد الذي مضى عليه نحو ثلاثة قرون وربع ويتحدث كثيرا عن مظاهر اضطراب الامن.

- ٢ -

ويتحدث العياشي عن آثار مكة المكرمة، ويصف جبل حراء، وجبل ثور الواقع على بعد ثلاثة اميال من مكة.

ويذكر الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: انها اتخذت الآن مسجدا ورمزا عظيما يجتمع اليه الوفود من كل جانب ايام المولد النبوي، والدار قريبة من الشعب الذي انحاز اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب في قضية الصحيفة، وهو شعب ابي طالب وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويصف مقابر مكة، وفيها دفنت السيدة خديجة ام المؤمنين، وزوج رسول الله، وهي تقع في الحجون، والحجون كله من المزارات المشهورة.

ويذكر آثار منى، ويصف موقف رسول الله بعرفة.

ويعرض العياشي لعلماء مكة الذين اجتمع بهم، ومنهم:

- تاج الدين المالكي

- سليمان الحبيشي

- عيسى بن محمد الثعلبي

وكان حاكم الحجاز في هذا العهد هو الشريف زيد بن محسن (١٠٤١ - ١٠٧٧ هـ)، وكان مولده عام ١٠١٤ هـ. ويتحدث العياشي عن الشريف زيد، ويثني عليه، ويقول: انه من احسن امراء عصره سياسة وحسن تدبير،

وهو من اسرة آل ابي نمى التي حكمت الحجاز طويلا.. ويقول العياشي إن الامير زيدا تضرب به الامثال في الشجاعة، ويصف حب شعب الحجاز له، واستتباب الامن في مكة بفضل حزمه.

ويصف مدينة جدة ، ويذكر مفتي الحنفية فيها، ويثني عليه وعلى علمه وسخائه.

ومن الفكاهات التي يذكرها العياشي عن البدو وجفاء طباعهم، وغلظة اخلاقهم ان اعرابيا جاء الى المسجد النبوي الشريف ووقف امام الروضة الشريفة، وضرب بعصاه الارض مرتين، وهو يقول:

يا محمد، لا تقل انا ما جئتك، ها انا ذا، ثم مضى منصرفا وذهب ولم يزد على ذلك كلمة.

ويذكر العياشي انه رأى رجلا في «ينبع»، وقد ظهر الشيب في مفرقه، فسأله عن مكة، فرد عليه: انا ما حججت قط.. ويتعجب العياشي من هذا الرجل الذي لم يحج قط وبينه وبين مكة نحو ثمانية مراحل.. وسأله عن المدينة، فقال له: انا دخلتها مرتين او ثلاثا، هذا مع ان بينه وبين المدينة نحو ثلاثة مراحل.

ويصف العياشي آثار المدينة ومنها مسجد قباء، ومسجد الجمعة، ومساجد الفتح، ومسجد القبلتين، وغيرها.

ويذكر رفاهية أهل المدينة وترفهم، ويصف جمال ليلة الحادى عشر من ربيع الاول في المدينة، وفي المسجد النبوى على الخصوص، ويقول: ان هذه الليلة من الليالي العظيمة التي يسترخص شراؤها بباقي العمر، ويقول: إن الامامة والخطابة في المسجد النبوي موزعة بين فقهاء المدينة على مدار السنة.

ويذكر احتفالات اهل المدينة في رجب بزيارة حمزة وشهداء احد.

ويذكر ان ولاية المدينة هي لبني حسين، وأن ولاية مكة هي لبني حسن..

ولكن بني حسن لفرط شجاعتهم جمعوا بين الولايتين ـ ولاية مكة، وولاية المدينة ـ الآن.

ويذكر من علماء المدينة كثيرين، ومنهم:

ـ أبو الحسن علي الربيع، الذي حضر مجالسة العياشي ايام اقامته في المدينة، وقال عنه: ما سمعت احسن منه تلاوة للقرآن.

ـ ابراهيم بن حسن الشهروري

ـ ياسين الخليلي، وهو احد خطباء المسجد الحرام وأئمته.

ابراهيم الخياري، وقد قدم والده من القاهرة الى المدينة عام ١٠٢٧ هـ، فتولى الامامية والخطابة والتدريس، وخلفه ابنه بعد وفاته.

ـ عبد الله بن عفيف اليمني الشاعر من بني علي بن عبد القادر المالكي، وهو أصله من المغرب، ولآبائه في المدينة ذكر ذائع، وهو أحد خطباء الحرم والمفتي المالكي في المدينة.

ويعنى العياشي بذكر ما شاهده من نفائس المخطوطات في رحلته من مكة الى المدينة، ومن المدينة الى مكة.

وهكذا يستمر العياشي في رحلته هذه في وصف كل ما شاهده في الحرمين الشريفين او في الطريق اليهما.

وبعد فهذه المقتطفات من الرحلة العياشية سفر نفيس يرجع الفضل في نشره للشيخ حمد الجاسر.



فن المقال الصحفي في ادب طه حسين

طه حسين (مارس ١٨٨٩ ـ الاحد ٢٨ اكتوبر ١٩٧٣)، مزاج قوي بين حضارة الشرق وحضارة الغرب، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين: الازهر والسوربون.. ومع نبع المعرفة الانسانية نهل طه حسين من الثقافات العالمية وتعمق في دراسة الاداب القديمة والحديثة على السواء.

وتتركز ملامح شخصية طه حسين في فكره الحر المستقل، وروحه الكبيرة الطموح، وهيامه بالفن والجمال والادب كما يقول محمود تيمور في مقالة له عن طه حسين نشرت في الهلال عدد فبراير ١٩٦٦.

ويمثل طه حسين ورفاق له مدرسة جديدة في الادب المصري، بل وفي الفكر المصري المعاصر.

وطه حسين يصطنع في البحث المنهج الديكارتي ـ نسبة الى ديكارت ـ وقد شغف طه بفلسفته وتأثر بها، وسار على ضوئه في دراسته للشعر الجاهلي.

ولطه حسين نظرياته في الادب والنقد والثقافة ومن اساتذته سيد بن علي المرصفي والشيخ محمد المهدي واحمد زكي باشا وحنفي ناصف وقد أخذ عنهم فهم النص، وتذوق بلاغته، وكذلك المستشرقان نلينو وفييت وأخذ عنهما فهم الادب العربي واطواره وكل المقومات الادبية التي تأثر بها هذا الادب. وفي فرنسا حضر محاضرات فوكو في علم النفس في جامعة مونبليه ومحاضرات اميل دوركليم وشلستان بوجليه في علم الاجتماع، وتحت اشرافهما كتب رسالته

الفلسفة الاجتماعية عن ابن خلدون. ودرس الفكر اليوناني وكتب عنه والف فيه. كما تأثر بفلسفة ابن خلدون وابي العلاء، واحتذى حذو احمد لطفي السيد في تفكيره.. وفي كتبه: أديب - الحب الضائع - فصول في الادب والنقد - الوان - من بعيد - صوت باريس - لحظات، صور من تأثره بالثقافة الفرنسية.

وصلة طه حسين بأدب المنفلوطي صلة وثيقة، ومع انه نقد المنفلوطي في مجلة اللواء ثم العلم عام ١٩١٠ فانه كان يقول: لقد كنت امقت المؤيد كل المقت الا يوم ينشر فيه «نظرة» او «اسبوعية» فقد علم الله اني كنت اشغف به كل الشغف، واقبل عليه كل الاقبال[١].

والحديث عن طه حسين طويل ومتشعب ولا ينفذ بحال.

دراسة جديدة:

وقريبا من عيد ميلاد طه حسين الثامن والتسعين (١٨٨٩ - ١٩٨٧ م) يظهر في دراسة ادب طه حسين كتاب جديد للدكتور الناقد عبد العزيز شرف بعنوان «فن المقال الصحفي في ادب طه حسين» في نحو ثلاثين واربعمائة صفحة من القطع الكبير عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والكتاب دراسة جديدة، غير مسبوقة، استخدم فيها العزيز شرف منهجه في التفسير الاعلامي للادب، وحرص على الرجوع الى الادب الذي لم ينشر في كتب لعميد الادب العربي د. طه حسين.

وقد استطاع الباحث ان يستقرىء اشكالا جديدة لفن المقال، تثري فنون التحرير، وتؤصل هذا الفن في تراثنا، وتحدد منهجه في تحقيق التعادلية بين الاصالة والمعاصرة، وجهد المؤلف في اظهار الخصائص الفنية لادب المقالة. وسيلة لتأصيلها في تراثنا، ولتأصيل هذا الفن في التراث ايضاً.

---

(١) الهلال عدد فبراير ١٩٦٦ ص ٨٧.

ويقول المؤلف في صدر بحثه (ص ١٠): حاولنا في هذا البحث ان نتعرف على الأسس الجوهرية والتيارات الفكرية العامة، والنواحي الفنية الهامة التي اسفر عنها الفن الصحفي فيما يخص المقال الصحفي في ادب طه حسين، من حيث تحريره وغايته في الارتباط بالجماهير، فضلا عن عمومية وسيلة الاتصال الصحفي ودوريتها، والرؤية الوظيفية التي تدفع الفن المقالي، وتحدد شكله ومضمونه. وقد اتخذ طه حسين من الفن الصحفي وسيلة للاتصال بالجماهير في تحقيق التقارب والتواصل، القائم على ان الفكرة في دلالتها الاجتماعية، والكلمة في صيغتها العملية من اقدم الوسائل لتحقيق ما ينشد.

دوره في ابراز النهضة:

ويقول المؤلف: ان طه حسين أحد الطلائع الذين استوت على ايديهم معالم النهضة المصرية الحاضرة، فكانت مراحل حياته المختلفة، كما كانت جهوده الصحفية مظهراً لايمانه بهذه المثل، ومصداقا لعمله على التعبير عنها في الوصول بمصر الى الغد المشرق، وفي تعزيز صلاتها بالفكر الانساني على تعداد آفاقه، وفي مقاومة العزلة بجميع الوانها، ويمثل مقاله الصحفي هذه الرؤيا في الميدان الفكري والميدان العملي على السواء (ص ١٣).

ويقول كذلك: لعل في ذلك ما حدا بكثير من المستشرقين الى توكيد الارتباط بين الجوانب المختلفة في كتابات طه حسين ونبوغه الفني في كتاباته الثقافية والسياسية والادبية على السواء (ص ١١) .. ولقد تقاضانا المنهج العلمي في دراسة فن المقال الصحفي في ادب طه حسين ان ننطلق من فهم عملية الاعلام على انها عملية اتصال بين كاتب وقارىء الامر الذي يجعل دراسة المقال الصحفي في مكانه من عملية الاعلام (ص ١٣).

المستشرقين وطه حسين:

ويقع الكتاب في عدة فصول:

فالفصل الاول: عن طه حسين ومدرسة الجريدة.

والثاني: عن طه وبيئة المقال الصحفي في مصر.

والثالث: عن طه وبلاغة الاتصال بالجماهير.

والرابع: عن أساليب التحرير في مقال طه.

والخامس: عن طه حسين وفن العمود الصحفي.

والسادس: عن فن اليوميات الصحفية في ادب طه حسين.

والسابع: عن فن المقال الرئيسي الافتتاحي.

والثامن: عن فن المقال الرئيسي النزالى.

والتاسع: عن فن المقال الرئيسي الكاريكاتيري.

والعاشر: عن المقال التحليلي والتقويم الصحفي.

وفي المقدمة ذكر المؤلف ان في الدور الذي قام به طه في نهضتنا الصحفية الحديثة ما يلقي الضوء على تقدير المستشرقين لدوره. حتى لقد ذهب الاستاذ سبرنجلنج الى انه لم يظهر من عصر هوميروس الى الان من نبغ نبوغ طه وعده « برجشترسر » فخر الادب بمصر، وجعله المؤلف هو وسقراط والجاحظ أشد الناس صلة بروح المقال الصحفي (ص ٣٥).

ويدرس المؤلف بيئة الجريدة التي عمل فيها طه وبيئة ركب الشرق، والوادي، والكتاب المصري في الفصل الثاني.

ويشرح في الفصل الثالث: عناصر الاصالة والتجديد في فن المقال الصحفي عند طه حسين، وبلاغة المقال الصحفي، وبلاغة الاتصال بالجماهير في مقاله، والاسلوب الواقعي والاستقصائي والاستقرائي والصحفي في ادب المقال عند طه حسين.. وذلك في الفصل الثالث.

وفي الرابع يستعرض المؤلف القصصى والوصفى، والرمزي والرسائل المقالية في ادبه الصحفي وخصائص كل لون، وذلك في دقة، وعمق تناول.

وفي الخامس يعـرض لفـن العمـود الصحفـي ولفـن العمـــود الرمـــزي وخصائصها.

وفن اليوميات الصحفية موضوع الفصل السادس حيث يعرض المؤلف لفن المقال الاعترافي وفن اليوميات الصحفية وخصائصها في ادب طه حسين الصحفي.

والمقال النزالي وخصائصه عند طه حسين ويشمل الفصل الثامن.

ودراسة المقال الكاريكاتيري وخصائصه وعناصره في ادب طه حسين في الفصل التاسع جديرة بالتأمل.

والمقال التحليلي والتقويم الصحفي مما عرض له المؤلف في الفصل العاشر عرضا جيداً وجذابا وعميقا.

والمصادر والملحقات والمصورات شيء كبير، وعمل علمي كثير الاهمية وهي في الكتاب جديرة بالتأمل والوقوف عندها.

تحديد ابعاد فن المقالة:

وماذا اقول عن هذا السفر القيم النفيس الذي يأخذ بزمام القارىء والدارس، ولا يترك له مجالا، اخذاً شديداً.

ولهذه الدراسة الواسعة العميقة لفن المقال الصحفي في ادب طه حسين فضل تحديد ابعاد الفنون المقالية واستقرائها من تراثه الصحفي: فن المقال التنويري وفن المقال النقدي والعمود الثقافي، والمقال القصصي والمقال الوصفي، والتقرير الصحفي، وفن العمود الصحفـي وفـن اليـوميـات الصحفيـة، وفـن المقـال الاعترافي، والرئيسي الافتتاحي، والنزالي، والكاريكاتيري، التحليلي.

كما حرصت هذه الدراسة على التزام الحيدة العلمية حرصا شديداً: وعلى الجملة فالكتاب معلمة كبيرة عن طه حسين وفن المقال الصحفي في ادبه.

وهو جدير بالقراءة والتأمل العميق ويصدر في ذكرى ميلاد طه حسين الثامنة والتسعين.

وقد ازعم ان تراث طه حسين قد كسب اليوم جديداً من الدراسة، وانه سيبقى معلما من معالم دراسات ادب طه حسين أديب العربية الاكبر في العصر الحديث..

الفهرس

الصفحة